بروطابوراس يا ناس..!

بنسالم حميش

كل شهرين

يوليوز - غشت 1998

سلسلة إبداعات شراع

4 - رواية



10 دراهم

سلسلة إبداعات شراع

خاصة بالمسرح والشعر والقصة والرواية

تصدر كل شهرين عن وكالة شراع لخدمات الإعلام والإتصال

مركز الإدارة

137 شارع ولي العهد ـ طنجة

الهاتف : 94.42.12

37.39.27

الفاكس : 94.42.16

العدد الرابع خاص بالرواية

يوليوز ـ غشت 1998

« سلسلة إبداعات شراع »



سلسلة إعلامية لنشر ثقافة التواصل

الثمـن : 10 دراهم

من أجل مجتمع مغربي قارئ

مقدمة خوان غويتصولو لترجمة « مجنون الحكم »* إلى الإسبانية

● إن الرواية المكتوبة بالعربية قد دخلت - في تقديري - طور البحث عن أشكال جديدة . ففي حين أن الرواية الفرنسية أو الإيطالية - ونقصر التمثيل عليهما تجنبا لإثارة حساسيات أكثر قربا - تعرف نوعا من التراجع البطيء بفعل فقدانها للشهية ومعارضتها للجدة ، فإن الرواية المكتوبة من طرف جيراننا في الضفة الأخرى ، تتخلص شيئا فشيئا من محاكاتها للنماذج الأوربية ، وتتمثل حتى من دون أن تعرفها كلمات چاودي النيرة النبوئية : " إن الأصالة تكمن في "العودة إلى الأصل". وعلى غرار بعض كبار كتاب القرن العشرين من جويس إلى أرنو شميث ، الذين ترتبط كتاباتهم قصديا بشفوية نصوص العهد الوسيط الأدبية و " نموها الوراثي " ، فإن جيلا من الكتاب في العالم العربي يكتشفون حداثة مفقودة في الحوليات التاريخية وأدب الرحلات وفي قطيعات وتحولات الزمان والمكان المدوخة عند ابن عربي وأقطاب صوفيين آخرين . وكما سبق لي أن كتبت في مناسبة أخرى : " إن للحداثة قوانين تجهلها

---

* - بنسالم حميش : « مجنون الحكم » (جائزة الناقد للرواية) ، دار الرياض الريس ، لندن 1990 .

الكرونولوجيا " .

« مجنون الحكم » للكاتب المغربي بنسالم حميش ، تشكل الدليل الساطع على هذه" المعاصرة اللازمنية ". إن هذه الرواية كـ « الزيني بركات » أو تحف فوينتس وروووا باسطوس ، بعيدة حقا عن أن تكون رواية تاريخية عادية ، ولو أنها منبنية على شخصية تاريخية هو أبو علي منصور (ولقبه الحاكم بأمر الله) ، أحد خلفاء الدولة الفاطمية التي حكمت مصر من سنة 973 إلى 1171 م ، ويرجع إليها عمل تشييد القاهرة الفاتنة ، المخترقة حتى هذا العهد بزقاق المعز لدين الله ، المتآكلة المنهدمة البئيسة الجميلة .

إن رواية حميش قائمة على اللاخطية المجانبة للتطور الدرامي ، الميسرة لعملية تشكيل وتفكيك الشخصية المركزية . الحكي عنده يبحر بضربات مجدافية ويستبطن تناقضات المستبد (الحاكم) حتى يحولها إلى محور أو قطب رحى انسجاميته الداخلية وهي انسجامية بين نص ممفصل وشخصية متقلبة ، يعرف المترجمون صاحبها : " وكان جوادا سمحا ، خبيثا ماكرا " ، يتأرجح دوما " بين شجاعة وإقدام ، وجبن وإحجام ، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء ".

وكما يشير بحق صاحب هذه الترجمة الممتازة إلى الإسبانية فدريكو أربوس : " فإن الروائي حميش في شواهده المدخلية كما في مقاطع المؤرخين طي النص يُعمل

ناء بالغ الدقة للمصادر الإخبارية العربية ، من مصنفات
ن الحادي عشر إلى التواريخ العـامة والإقليمية في
ن الخامس عشر ميلادي " ، وهذا التنوع في وجهات
ظر المتنـاقضة يخدم خطـاطة حميش في خلق نص
وج ، مكـون من مقـــاطـع وألوان ، ومنُ أشـكال
جام مختلفة : فالحاكم (على هذا النحو) يُنظر إليه
نيا وبرانيا ، من طرف مفسرين مطاويـع أو صارمين ،
سعين حتى المهانة أو معارضين حتى الإفراط .
إن فصل الرواية الأول يختصر ويكسر السرد بواسطة
طع متواترة ، فكل فقرة تحويل لسابقتها أو انتقال بها
حدود ما إلى انصهار في غيرها ، وفي هذا التعاقب
رديات متعارضة ، من يلزم أن نثق به ؟ هل بالإخباري
اضع المتزلف ؟ أم بالداعية المتهافت ؟ أم بالضحية
يئة لحكم النزوات والخروقات ؟
إننا نعلم منذ سرفنتيس أن الرواية هي مملكة الشك :
عاءات تاريخ قائم عادة على حـكايات وأفـعال خـرافية
صطنعة) تعارضها الرواية بحقيقة الخيال الخلاق
انة العمل المتعري من الأقنعة ومن مهازل كل أسطورة
وعة إلى سدة الحقيقة الدوغمائية المتفشية . فالحاكم هو
د ونقيضه ، وهو التيولوجي المتواضع والكائن المؤلَّه ،
 الباني المشيد ومضرم النيران . إن ثنـاياه وطوياته
ابقة لكمدة صخرة محللة من طرف خبير جيولوجي ، **فأي**
م أخلاقي يمكننا إصداره على بنية بـركانية **صارت**

شظايا تحت ضربات المطرقة ؟

لقد كتب التاريخ على أيدي الغالبين الذين كان همهم الأول إسكات صوت المغلوبين ، وبالتالي ، ما كان موضع تمجيد سيؤول ذات يوم إلى رماد بفضل تعقب المخطوطات أو بفعل إتلافها بالنار . إن تزييفات المتحكمين وإقحاماتهم تصير مؤقتا ، وأحيانا على الدوام ، حقائق راسخة صلبة . والروائي يعرف هذا ، فيجعل في فم مؤرخ وجد بالفعل ، هو المختار المسبحي ، كلاما ملتبسا في الدفاع عن حكايات منحولة تتقصد إدهاش المؤرخين " "الميثولوجيين" اللاحقين ، الذين حفلت بهم إسبانيا كما الشأن في العالم العربي : " لكن يا مولاي ، هذا النص المنظوم بالشعر والخيال ، سيتحول بالتدريج إلى وثيقة صحيحة يكرر نسخها حتى أقرب المؤرخين إلى قيام الساعة ، وأنا أراها من الأهمية والنفاسة ، بحيث يحسن روايتها كما تروي كل الوثائق التي بدأت خيالا ، ثم صارت تاريخا " (ص 215 في الأصل) .

إن « مجنون الحكم » هي إذن ، دفاع تنويهي عن حقيقة الخيال ضد ثغرات وافتراءات وبياضات مصنفات التاريخ المسخرة من طرف أقطاب الدوغمائية الرسمية ومحرري برامجهم الثقافية . وفي فصول الرواية تتناوب الإخبارية والباروديا عبر سرود تخييلية ، ولكنها متأصلة في التراث الأدبي والشعبي العربي : فحكاية العبد مسعود ، الزاخرة بالهزل ، كأنما هي مستقاة من « ألف ليلة وليلة » ، كما أن

سخــرية رقيقة تفوح من مجــالس الحــاكم في « دهن البنفسج» أو « لطلب الدهشة » أو « الإلهيات بين الدعاة » ؛ أما الفصل المخصص لمغامرة أبي ركوة العسكرية وهزيمته فيها ، فإنه يكسر بنحو ما توازن الخط التعالقي للحكي ، إلا أن انتقام الحاكم الدموي من بطاقات المصريين في التنكيت عليه والتشهير به ، وكذلك الصفحات المتعلقة بمقتله وبمحاولات التسميم والمؤامرات البلاطية التي دبرتها الأميرة ست الملك ، أخت الحاكم ، كل ذلك يتيح للكاتب معاودة الكرة وإكمال إبحاره المثير الذكي .

تماشيا مع رغبة الحاكم في إحدى لحظات صفوه ونقده الذاتي النادرة ، نسجل أن رواية « مجنون الحكم » تأخذ على عاتقها الصدع بما يتناساه المؤرخ ويسكت عنه ، أي الصرخات المضمرة والتمزقات المستشرية والحقائق الحية . ◘

يروحها يوراس ياناس !

رواية :

بنسالم حِميِّش



لوحة الغلاف :

محمد شقور

1 في ساحة " كان يا ما كان "

" عَيَّطْتْ عَيْطَة حْنينة فَيْقَتْ مَن كَان نَايَمْ
نَاضُوا قْلُوبْ المحْنَّة ورقْدُوا قْلُوبْ البْهَايَم "
قالْها سيدنا الشيخْ المجذوبْ
صاحب اللَّوعة والحكايمْ
قالْها مُولْ الكلام الرباعي
عليه الرحمة والنعايم
تعالوا ياقلوبْ المحنة تسمعوا حديثْ الصّح
ما فيه غشّ ولا وشّ ما فيه شتاْيم
تعالوا لحلقتي كنتم من الصّغار أو الكبار
من أصحاب الكسوة أو أهل العمايم
تعالوا سوا كنتم من ناسْ الذوق والفطنه
أو من عبيد الغفله والشكايمْ
تعالوا نعطي لروْاحنا وقتها
وناديوْ على رجال االقدره والفهايم ..

* * *

الداكن السمرة ، المجعد الشعر ، الطويل الوجه والقامة ، النحيل جدا رغم أنه أكال ، الخمسيني ، واسمه علي العوني ، متنكِّرا في زي سائح ذي نظارة سوداء وقبعة نصرانية ، كان يأخذ لصاحب الحلقة وذاك الكلام صورا شمسية بآلة صغيرة ، كما فعل مع حلايقي آخر أعجبه كلامه في هذه الساحة الشعبية الواسعة المربعة ، المحفوفة بحوانيت شعبية تعرض أنواعا وأشكالا من المأكولات والمشروبات والملبوسات ؛ هذه الساحة التي ظل الناس يسمونها باسمها القديم " كان يا ما كان " ، رغم أن بروطابوراس ، الرجل القوي في هرم السلطة (الآتي ذكره) ،

أمر بنحت اسم جـديد على نصبها هو "سـاحة سرّح لسانك"، اسم من بنات أفكاره مالبث الوعاة الفاطنون الألبّاء أن رأوا فيه فخّا من فخاخ المكـائد المنسـوبة إليه أصلا وحبكا ، فصاروا إذا ما نطقوا بذلك الاسم البدعة - من باب الهزء - أضافوا إليه مضمره للتنبيه ، فقالوا : " ساحة سرّح لسانك يتقطع " .

تابع الحلايقي كلامه ، والمتفرجون يتكاثرون من حوله :

صلوا على النبي صاحب المعراج

مولانا مول التاج

حبُه في قلبي هيّجُه .

(أصوات : **الله مصلي عليك يا رسول الله .**)

علوها والساكت عليها مسخوط

(أصوات كثيرة : **الله مصلي عليك يا رسول الله .**)

قلت الساكت عليها مسخوط

وإلا واحد يتفرج ويمضغ العلك والآخر يغلي ويفور ؟

صلاتكم بارده سكه ، بحال فلوسكم وأيامنا

ما تهز دجاج على بيضُه ولاتعطي الحر لقلوبنا

لكن ما عليش مادام شيخي المجذوب يفوه ويقول :

" لا تخمّم ولاتدبّر لا ترفد الهم ديمة

الفلك ماهو مسمّر ولا الدنيا مقيمة "

سمعوا يا ناس حكاية نبينا الرسول

اللي بها يلزم يسري بينا القول :

" في ساعة النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت واحد المراه يسموها هندة ، تحفر على الموتى وتجبذهم وتاكل القلوب انتاوعهم . سمع بها النبي وقال للناس هذه المراه تقعدوا لها

وتقبضوها وتجيبوها . وهذه هندة كانت معروفة ، ولكن ما حسبوها شي حتى قبضوها وجابوها للنبي . قال لها النبي أنت هندة ؟ قالت له : نعم يا النبي . قال لها : وكيفاش تاكلي الموتى راني نحرقك بالنار . قالت له : أنا هي هندة أم الهنود ، ووكالة القلوب ، في وقت الجوع والنوع ، قلب المومن مايكون حقود يا رسول . "

" صلوا على العدنان   من جانا بالبيان

نمجّد مول الفرقان   طه مفتاح الكون " ...

على ظهر كل جاي ورايح

على ظهر اللي قوّض الظلم ظهرُه ونزّل ذكرُه

على ظهر كل عريان مهاجر عبر الفصول

نبغي انشر الكلام الخارج من الصدر للصدور

نبغي انحرك السواكن والماء الراقد واللي يكون يكون ...

اللي ما وسّعها ما هُو منا

والنظام النظام واحظوا البزطام

وسعوا الحلقة وسعوها وقووها وزكوها

قال واحد الشيخ فالح عاكف فارغ من الذنوب كلها

قال حدثنا أحد البلغا عن واحد من كبار الجبهة والفهما

قال قد فاز من وسعها وتزكى من قواها

الحلقة تركوها يا مساخط ربي يادراري السوء والشمان

اتركونا حتى ما ينزل المسخ والبهتان

ولايبيعنا الكاري حنكُه ، السعاي بالتبياع والوشاية

تركونا حتى ما يهجم علينا اصحاب العصي والبصلة

وتمشي ريحنا كلها غبار وخساره

(صمت قصير تتخلله حركات وهمهمات)

كلموا سوارتكم

حتى لو كانت من الخشب أو من النخاله

ماتفتح باب ماتغلق باب

ولا جاه إلا جاه مالين الألباب

وأصحاب العطف والرزانه ...

حكّوا جنابكم ولو بالقليل ياأهل الرحمه والفهامه ..

(يدور الرجل بحلقته مادا طاقيته وعاءً ، يتلقى بعض الفلوس ، ثم يرجع إلى مكانه .)

توجهوا معي لربنا العظيم

وقولوا دعا اسيادنا الأولين :

" يا مول الجود والإحسان مع التفضيل

يا غاني يا كريم فك التوحيلا

عجّل بعلاج قلب وسط الصدر غليل

واعتق يا ذا الجلال روحي العليله

واللي يطغى تهدُ ذاته لا تمهيل

حتى يبقى يشوف نفسه دْليله "

(أصوات كثيرة : **آمين**)

وعد عليّ العوني نفسه بالرجوع إلى الساحة و بعث بعض رجاله ينوبون عنه في التعرف على مهرة الكلام والقادرين منهم على جبذ اللسن وإخراج ما تخفيه الصدور ؛ وعد نفسه بذلك لأنه كان مضطرا إلى أخذ سيارته وتغيير لباسه ورائحته بقصد أن يحضر اجتماع الرجل القوي مع ثلة من وزرائه الأساسيين .

الاجتماع ، كما فَهِمَ واستنتج ، في غاية الدقة والأهمية . لذا ، فعليه أن يحضر قاعته ساعة من قبل لكي يطمئن إلى

نظام الطاولة البيضاوية الشكل والكراسي المجلدة الفاخرة ، ويتأكد بنفسه من نصاعة كل الأثاث ، وذلك حتى يكون عند حسن ظن سيده وولي نعمته ، الذي يحب النظام ويكره الغبرة ، الذي أنقذه من وظيف التعليم ، وظيف الشح والغبن ، وعيّنه في ديوانه مستشارا مكلفا بمهمة . وطبيعة هذه المهمة لم تكن لتخفى على مدارك الحاشية الحادة ، فنزع البعض إلى إطلاق اسم " بومهمة " على صاحبها ، وآثر البعض الآخر الإفصاح والإيضاح بتلقيبه " العين " ، أي عين الرجل القوي ، الآتي ذكره ، فشاع في البلاد كلها لقباه وذاعا .

2 بروطا بوراس يترأس .. ياحفيظ !

في يوم كل خميس بعيد العصر ، تعوّد الرجل القوي على استدعاء أعوانه ومستشاريه الذين تطلق على بعضهم تجاوزا صفة وزراء بحقائب معينة أو بدونها ، كما تعوّد على تركهم منتظرين قدومه ساعة أو أكثر ، وذلك بمعية مستشاره بومهمة السالف ذكره ، الذي تعوّد بدوره على تزجية الوقت برمق الحضور بعين فاحصة متطلعة ، والإنصات إلى همساتهم بأذن دقيقة لاقطة . وحين يبدأ في النظر إلى ساعته ويرش يديه وعنقه بعطر من قارورة كانت لاتفارق جيبه ، فمعنى ذلك أن وصول سيده وشيك جدا .

وفعلا ، لم تمض لحيظات حتى ارتج ممر باب القاعة الخلفي بوقع خطوات مدوية حازمة ، أعقبها انفتاح الباب ودخول الرجل القوي محفوفا بحارسين ، فوقف له الجميع وانقض بومهمة على حقيبته ووضعها أمام مكانه المبرز من الطاولة ، ثم جلس قريبا منه بعد أن تلقى الواقفون الإذن بالجلوس .

أول مايلفت النظر في وجه الرجل القوي - إضافة إلى الصفات الأخرى التي سيأتي ذكرها - هو لون عينيه الأخضر من جهة ، وجحوظهما من جهة أخرى ، وأكثر من ذلك بلوغهما حدا من الغموض والالتباس ، بحيث يتبدى أن واحدة ، كما يقول المثل ، تقلي والأخرى تصب الزيت ، فلا يدري من تقع عليه إحداهما هل هو المنظور إليه أو جاره القريب أم الأبعد . وكان صاحبهما شديد الوعي بذلك ، فيغتبط باطنيا لما يشيعه دائما حوله من حيرة وبلبلة ، ويغتبط أكثر لما يعلمه من كون جلسائه ومناظريه يحسون أنهم على الدوام مرئيون جميعا ، لا يفلتون من قطر بصره

وحدّه . وإذا صح أن العينين مرآة النفس ، فالغالب على الظن أن ماء نفس صاحبنا - المتهيئ الآن للكلام - ماء عكر .

قال بعد أن شد بين كفيه الضخمتين على كأس ماء معدني ، وفي شده هذا إشارة إلى تهديد كل متكلم ثرثار أو معـــــاند بتلقي ماء الكأس على وجهه وأوراقه ، فترى المجتمعين به يتخذون جانب الحيطة والحذر ، ويستنزلون لطف الحفيظ الستار ، ويديرون الكلمة في أفواههم سبع مرات قبل إخراجها ، قال بعد أن نحنح وبرم شاربه ولامس بعض الملفات والأقلام المعدة أمـــامه من طرف خـــديمه بومهمة ، المنكب الآن على تقييد أقواله في الورق الناصع بالقلم الثمين :

- بحمد الله وشكره على نعمه نبدأ ... أيها السادة ، هاتونا بالهام من الأخبار لا بعاديها . قلّتها تقلقني ! كثرة السكون لاتعجبني ولو أتى بعد التوفيق في كبح القلاقل ومحقها ، لذلك غيرت اسم ساحة " كان يا ما كان " باسم جديد تعرفونه وتدركون غايته في الحث على حرية التعبير ؛ ولــذلك أيضا أقنعت سيادة الــرئيس بــرفع الحظر على الصحافة وهيئات الفتن حتى أتمكن بعون الله وعونكم من رصد مواقع الخصوم ومعرفة مايدور في الرؤوس .

ساد بعض الصمت .. ظن وزير الملة أنه مطلوب للكلام ، فتجرد له محركا أوراقه ، إلا أن الرجل القوي رشّد نظراته المشتتة بـــإشارة واضحة من يده وجهها إلى وزير البر والبحر ، فأخذ هذا الأخير الكلمة وقال بصوت رزين جاد :

- لزام عليَّ ، حضرة النائب ، أنا خادم الدولة الأوفى ، أن أحترس طوال الوقت وأفتح حواسي لما تأتي به الرياح

من البناء ، وأن لا انام إلا بعين واحدة وعند الضرورة القصوى ..

ضحك الرجل القوي ضحكة منكرة وهو يسأل ساخرا :

- وليلة الأمس ، ألم تسهرها كلها في حضن مومس حولاء ذات خال على أنفها ومساحيق ؟ ألم تكثر من الشراب وأكل اللوز والهريسة ؟ دعنا من كل هذا وأكمل .

ارتعدت فرائص الوزير ، وانكب على أوراقه قارئا ، متلعثما :

- شاع في صفوف الرعية خبر مفاده أن نفراً من الشباب يجتمعون كل ليلة حول طاولة في قمم جبل شوف ، قرب شجرة يقول الأهالي إنها مباركة ، ثم يأخذون في الكلام الغريب بالتبشير بالفجر والخلاص . ويقال كذلك إن بعض أرهاط العاملين و " المحيِّطة " يلتحقون بهم ويعاهدون بالإخلاص . وقد عثر حراسنا اليقظون على مناشير في حوزة السكان ، منها ما يقول : " طبقة خدرتنا وأحسنت التخدير ، قد زرعت الألغام في مناطق الحلم بالتحرير ، واستقرت فوقنا ، فوق بساط سباتنا " ؛ ومنها مايقول كلاما أفدح وأقبح سجلناه في الصك الجنائي ، لايليق ذكره بهذا المقام ، وهو كلام لغو يعبر عن يأس سحيق ليس غير .. أما البحر ، ياحضرة النائب ، فقد صار ميدانا مرصعا بالفخاخ والألغام ، ومملكة لايحكمها إلا المهربة وعباد الماء ، فباتت حراسة السواحل تشكو من المتصوفة والحمقى المتسلطين على الكهوف والغيران المتاخمة للشواطئ وعلى بعض الخيرات من نباتات وأسماك . كما أن من الشعراء من ينظم القصائد الطويلة جدّاً في مدح البحر ومحاسنه

وتصويره مثلا أعلى للجود والعطاء ، ومعبرا أوسع للهجرة والفكاك . ونتيجة لذلك ، يهرع إليه التائهون الفقراء فوق البر، ويتحولون إلى متصوفين مجانين أو إلى مهربين للسلع والسواعد الآدمية . وكأني بكل هؤلاء ، قد ربطتهم اليوم بالبحر أوثق العرى ، هي أشبه ماتكون بوشائج النسب والقربى .. والرأي الذي انتهيت إليه مع أعواني أن نبني مزيدا من المارستانات حتى يُحبس عبدة الماء ويُحال بينهم وبين البحر .. أما أمر القبض عليهم ، فإن مصالحي أعدت خطة ترمي إلى إحلال فرقة من رجالنا بينهم متنكرين بزي الصوفية ، متظاهرين بأحوالهم ، فيتسنى جمع المعلومات عنهم والتعرف على أقطابهم ، ثم بعد ذلك يقوم فيلق من قوات التدخل السريع بعملية تطهير واسعة النطاق لثغورنا وشواطئنا ، تستهدف بالأساس إلقاء القبض على المتزعمين ورؤوس الفتنة .

كان الرجل القوي أثناء كلام الوزير يتمايل ، وعيناه مغمضتان ، وينقر على الطاولة نقرا يترنح له رأسه . وفجأة فتح عينيه كأنه صحا من نوم . قال متهكما :

ـ الرؤوس .. الرؤوس أولا وقبل كل شيء !.. لكني أراك كدأبك دائما تتكفل بالسهل من الأمور ، وتلقي بوعرها علي ! ترى كالآخرين أني على مقاومة المهربة وقراصنة الثروة السمكية وحفظ مياهنا من فسادهم ومخالبهم أنا القدير الوحيد . أليس كذلك ؟! إذن فهمنا ، ولا فائدة في لوك الكلام ... يقول المثل : " إنما الأمم الأموال مابقيت ، فإن هم ذهبت أموالهم ذهبوا ".. داؤنا المستفحل ، وليس داءنا وحدنا ، هو العجز المالي الخبيث ! داء يأتي الجفاف

والسنوات العجاف لتعقيده أكثر.. قرأت توصيات مصلحة الموازنات وراقتني بعض طلعاتها ، فذكرنا بلبّ خطوطها ولاتطل ، يا وزير الخزينة والمعيشة .

من خلف ملفات متضاغطة ، أطل وجه الوزير بنظارتيه السميكتين ، وقال بصوت رقيق خجول :

ـ حضرة النائب الفاضل : لم تشك الخزينة من عوز ملحوظ إلا منذ سنتين تقريبا ، للأسباب الظرفية والمناخية القاهرة التي نعلمها . وسؤال تعديد المداخيل وتنويعها أرقني وسهرت الليـــالي الطوال ، أنظر فيه وأخمن ، فما اهتديت إلا إلى ماسطرته في تقريري بالرقم والتفصيل ، وأذكره هنا بالإيجاز ... بيت المال ، كما في علم الجميع ، إنما يطعم بالضرائب والجبايات ، ماكان منها مباشراً وغير مباشر ، وماشرعه الدين أو استحدث بموجب الاجتهاد والمصلحة الوقتية . المكوس المتطورة المستجدة هي مايمكّننا من تليين حدة العجز المالي القائم ، وولوج روح العصر من بابها الواسع .. المكوس لابد من اطراد حجمها في حقول المواد ذات الاستهلاك العـــــــامي ، دون أن نغفل حقل الكماليات رغم ضيق حيزه المفرط .. ولأضربن لكم مثلا على مايمكن للاجتهاد الضريبي أن يدره من خير على الخزينة : تزور بلادنا هذه الأيام بعثة تقنية برطقيزية متخصصة في تحويل الفضلات والنفايات إلى ألبسة تركيبية وأسمدة تخصب الأرض وتحسّن إنتاجها . واقترحت البعثة على دوائرنا المختصة أن تطبق كفاءاتها على عينات من أزبالنا ومرمياتنا للغاية المذكورة ، شريطة أن نمول بناء ثلاث وحدات صناعية لذلك ، وأن نبرم اتفاقية تجارية مع بلادها ،

نزود بمقتضـــاها هذه الأخيرة بما تحتـــاجه من المواد المستخـرجة لمدة عشر سنوات ، بثمن رمزي لاتراعى في تحديده أثمانها في أسواق الدنيا .. هل يقوى بيت المال على تسديد نفقات بناء الوحدات الصناعية الثلاث وتوظيف يدها العاملة وصيانة آلاتها ؟ بالطبع لا ، لهذا أقترح تحقيقا لتلك الغـاية أن تحصل زيادات نسبية في ضـريبة الأزبال ، إذ لايعقل أن يستهلك السكان مايستهلكونه ، وتتكفل مصالحنا بتدبير مصير أزبالهم مقابل ضريبة بخسة تكاد تكون رمـزية .. ذلك مثال واحد ، حـضرة النـائب ، وهنـاك أمثلة أخرى تصـب في نفس المنحى ، أي تنشيط الخـــــزينة وإنعـاشـها ، منها على سبيل التـذكير : تغريم مهـربي المهاجرين والعقاقير المدوِّخة من دون حبسهم ؛ كراء قطع أراضينا النائية القاحلة لشركات أجنبية تدفن فيها نفايات صنـاعية مسمـومة ، وغير ذلك مما أعدت حـوله اللجنة المختصة تقارير مفصلة ، سأتشرف بعرضها على مجلسكم الموقر عما قريب .

فتح الرجل القوي عينيه واسعتين ، كأنما واحدة ترى في الأفق غنائم سمينة ، والأخرى تعبر عن استنكار واضح ، إلا أنه لم يلبث أن بدد اللبس والاختلاط في أذهان الوزراء ، إذ زمجر قائلا :

- لا مجلس وزراء ولا هم يحزنون ! هناك أمور تقنية جدا لايفصل فيها إلا الخبراء وأهل الدراية العملية .. وقضية جنون الإبِل المتفشي ظهوره في مناطق صحرائنا الشرقية ، أين نحن منها ؟

تردد الوزير في إبداء رأيه في الأمر مخـــافة إثارة ردة

فعل عنيفة من الرجل القوي ، إلا أن تخلي هذا الأخير عن كأسه شجعه على الإجابة التي طالما راودت ذهنه ، قال :

ـ فحصت القضية ، حضرة النائب ، مع بعض أعواني وقلبتها من كل جانب .. فبعد يأس البيطاريين من العلاج ، استقر الاجتهاد على عزل الإبل المجنون ، وحتى المُصاب بالجرب وأمراض معدية أخرى ، ثم ترحيله إلى حدودنا الشرقية ، وهنا نتركه يهيم على وجوهه في حقول وربوع محشوة بالألغام المضادة للأفراد ، زرعها أعداؤنا الخوارج . وهكذا نصيب هدفين بحجر واحد ، إذ نتخلص من الألغام والإبل المريض معا بأنجع وسيلة وأقلها كلفة .

سأل وزير بدون حقيبة وزير الملة متهكما : إن كان الإبل المجنون الساقط في ساحة الألغام تُكتب له الشهادة فالجنة ، فإذا بقذفة مائية تأتيه من الرجل القوي كاللطمة القارصة ، عقابا له على هرطقته وطنزه ، كما تلقى منه كلمة القدح المعتادة " يا بدون " ، ويقصد بها القادح معناها الأعجمي : (أي القربة) . أما المرشوش ، فلم يجد بدّاً من اصطناع ابتسامة صفراء باهتة يغالب بها حنقه وتدلي شفتيه ، قال وهو يجفف الماء عن وجهه وأوراقه :

ـ ماء حضرة النائب كماء إيفيان أو ولماس ، مافيه ضرر ولا باس ..

وعقب وزير غر ، بدون حقيبة ، وهو يتدرق بأوراقه :

ـ بل ماء حضرة النائب كماء زمزم ، فيه البركة وكل الخير!

ردد الرجل القوي همسا : بدونات ، بدونات !

استأذن وزير البر والبحر في أخذ الكلمة ، ثم قال :

- بعض جوانب ملف جنون الإبل تدخل في اختصاص مصالحي الساهرة على حماية التراب . وهناك بلدان مجاورة تشكو بعض مناطقها من خطر مثل تلك الألغام ، فلا بد من ترغيبها في شراء نسبة فائضة من إبلنا المريض ، وذلك بأسعار تفضيلية تُراعى فيها أشواط المسافة واتفاقيات التعاون وحسن الجوار . وإذن ، لابد أن يقوم التشاور والتشارك بين الوزارتين في ذلك الملف ، كما في غيره ، على قدم وساق ...

برم الرجل القوي شاربه ، وردد كلمات " على قدم وساق " بنحو ملتبس لايُفهم فحواه ، ثم أغمض عينيه وجالت في ذهنه صور مروعة تلذذ باطنيا بتدافعها وتلاطمها ، صور أرته تطاير الأقدام والسيقان والأيدي أشلاءَ مبعثرة نازفة ، وهي كلها لمن يسميهم " أصحاب الرؤوس الزائغة " من الرجال والنساء ، المقيدين إلى الإبل المجنون الهائم في مراتع الألغام والموت أو العطب المحقق . وبغتة فتح عينيه ، وسأل سؤالا كأنه إنما يروم به تلهية الحضور بموضوع آخر ، قال :

- وأنت يا فقيه ماذا وراءك ؟

كان المسؤول من طرف الرجل القوي هو وزير الملة : شيخ عجوز مُتَلَفِّفٌ في لباسه التقليدي . أجاب بصوت متهدج :

- لحضرة النائب العزة والتأييد .. رايات الخلد والنصر ترفرف على أجنحة الوزارة ، وأمارات البشر والخير تلوح دينا وفي الدنيا . وإني ما رأيت معروفا إلا قضيت فيه أمرك ، ولا منكرا إلا طبقت عليه نهيك .. إنما لأجل السهر

الدائم على هيبة الدولة ودوامها ، لابد من أخذ الحيطة القصوى ، والتسلح بملكات رصد البدع ، وإدراك أخطارها القريبة والبعيدة والظاهرة والخفية ..

ترنح الرجل القوي في كرسيه وشد على كأسه الملآى مهددا ، وقال محذرا والتضرع المهموس بين الحضور على أشده :" ألفقيه .. لَفقيه .. الوقت كالسيف .. إن لم تقطعه قطعك ألفقيه"، ثم أبدى إشارة كانت عادة ماتدفع بومهمة إلى التوقف عن الكتابة توا ليتأبط محفظة سيده بعد أن يرتب الأوراق والملفات داخلها ، واستأنف وزير الملة كلامه مرتبكا :

ـ ظهر في هذه الأيام .. نفر من المتفننين ابتدعوا عبارة لم يعثر فقهاؤنا في اللغة والبيان عليها أو على مرادفها ، ولم تألفها أذن العرب ولاخطرت في ديوانهم ، إنها : "اللامنتجون " . ويقصدون بها ، ياحضرة النائب ، بطانتك وحاشيتك وخدامك من الفقهاء والشراح وكتاب ديوانك وسائسي خيلك وغيرهم كثير . ولم يفطن أولئك المتفننون إلى أن الاقتصاد أو كل ما يدخل في باب أرزاق العباد وأقواتهم إنما هو فرع وليس أصلاً ، وشتان مابين الأصل والفرع ! ثم إن أصناف القوم الذين وصفوهم بالجدب وسوء العطاء إنما هم هؤلاء الذين يعملون ليل نهار في خدمة الدين والدولة ...

نهض الرجل القوي فجأة ، أشعل سيجاره وحيّا مودعا ، ثم قصد باب الخروج يتبعه مستشاره بومهمة حاملا المحفظة .

3 بروطابوراس يسهر ويبوح

حماد الرواسي كان اسمه العادي أيام لم يكن شيئا مذكورا ...

لكن ما إن خاض بحيل وحبال شتى في تسلق رتب الشرطتين ، الظاهرة والظلية ، حتى عُرف بلقبين :" الذئب " و " بوحيلة " ، كما عرف بلقب أطلقه عليه زعيم طلابي نال نصيبا من الضرب والتنكيل على يـــديه - وقيل بيـــديه مبـــاشـرة - ، واللقب هو : " بروطـــابوراس " ، الذي ذاع وشاع بين صفوف الطلبة والعمال وشرائح عـــريضة من الناس ، وفهمه حامله على أنه إشارة إلى ضخامة رأسه وعلو حجم العقل فيه ، فـاســتطـابه وتــركه يسري على الألسنة .

أما يوم تـأتى له التـربع على أجهزة الأمن كلها ، ونفذ منها بسرعة مذهلة إلى دوائر الحكم وصنع القرار ، فإنه لقب بـ" الرجل القوي " أو بالأحرى استولى هو نفسه على هذا اللقب وكلّف سرا خدامه بإذاعته وإشاعته في جهات البلاد الأربع . وما لبث أن انفرد بهذا اللقب الصفة بعد أن قويت شكيمته واشتدت شوكته ، فصار المرموقَ ، المطلوبَ ، البارزَ ، صاحبَ الكلمة المسموعة والنفوذ البالغ ؛ صار الذي لابد منه ولاغنى عنه في جوهر الأمور وخطيرالشؤون .

ولما أضحت ظـــاهــرته متـــوثقة العرى ، متعددة الأوكار والشبكات على امتداد سلطات السيف والقلم ، تـــدخل الرئيس مُعمر الفهد ، الرجل الأقوى ، الذي ظل رغم مرضه يقبض من فوق بنـاصية الأمور كلها ، ويـديـرها من مقر نقاهته المديدة ، فأقدم على إعداد طبخة من طبخاته الفائقة المهارة والإتقان ، تمَّ بموجبها تعيين الرجل القوي نـائبا

للـــرئيس من طرف مجلس القواد والأعيان . والحق أن الجميع وجدوا في هذا التعيين مايريحهم ويلبي حساباتهم . فـالـرئيس مطلع على مصارين المعين ، عـارف بمـكـامن ضعفه ، ماسك بملفات فضائحه السرية ، وبالتالي قادر متى شاء أن يطرده أو يسحقه ؛ أما أعـضـاء المجلس المذكور ، فـالمعين ، المـاسك بـأسرارهم كلها ، يمثل بؤرة ارتداد مطاحناتهم وتوتراتهم إلى حد مقبول ، بل إنه يضمن أن يبقى بينهم جاريا قـانون " اسكتْ عني أسكتْ عنك " ونظام تبادل الخدمات والصفقات والتصفيقات .

مع ذلك التعيين انهالت على الرجل القوي ألقاب فخمة فاخرة ، صار يتلقاها ببرم شاربه أو ملامسة بطنه ، وهي : "حضرة النـــــائب " و" ذو الوزارات " وذلك في الدوائر الرسمية ، و "بروطابوراس بوحقايب" في الأوساط الشعبية ؛ كما أخذ يشعر شعورا حادا بأنه زاد قوة على قوة ، وجاها على جاه ، وتجلت له هذه الزيادة ، في البدء ، بدنيا ، إذ أن مراياه الصقيلة المنورة في ديوانه وداره أخذت تقنعه يوما بعد يوم أن قـامته سجلت نموا ملحـوظا ، وتُظهر له بما لايقبل الشك صلعته وقد شملها ضوء دُهني نفاث ، وذقنه وقد تدلى وتكوّم ، وبطنه وقد استغلظ واندفع ، ووجهه وقد تدوّر وتورّد . وحتى صوته الذي بات في بعض أوقات فراغه يجـــربه أمام مراياه المفضلة ، فقد أُعجب أيما إعجاب بارتفاع حجمه ونفوذ وقعه وحتمية تأثيره ، فكأنما هي حبال وأوصال جديدة حادة محمودة أضيفت إليه ، فأغنته وقوته . تحولات خِلقية أوَّلها متلقيها تأويل الخير ، أي كنعمة ظاهرة من نعم التـــرقية العظمى ، ثم إنه (بتشجيع من إحدى

كاتباته ، أجملهن على الإطلاق ، لاتربطه بها - والحق يقال - إلا رابطة العمل ومداعبات خفيفة جدا) أضحى يعرض تلك التحولات الخِلقية مرة في الأسبوع على متخصصة في فن " اللوك " و " الليفتينك " بقصد ، كما فُسِّر له ، أن يرعاها وينميها بالأناقة اللامعة والعمليات الدلكية المنعشة . وكل هذه الممارسات كانت تعجبه كثيرا وتسره ، لاسيما وأنها تنسيه تماما أصله البدوي ، وأيام خشونة العيش والملبس ، وأكل البقول والشعير ، والمشي حفاء .

أما من جهة الدماغ والملكات العقلية ، فقد كانت للترقية العظمى انعكاسات إيجابية جمة على الرجل القوي ، إذ أنه صار مفكرا ، مفكرا كبيرا ، مفكرا كبيرا جدا : في مآربه وأغراضه الذاتية جدا . ولم يعد يخفي كونه يدفع عربة أناه دائما أمامه ، ويرتب الأشياء والمساعي كلها حول سُرّته ، قطبِه الأساس . شعاره المحبوب جدا اليوم أكثر من أي وقت مضى ، شعار عقله الباطن المكتوم : مأربة لاحفاوة ! أنا أولا ثم أنا آخرا ، وبعدي الزلزلة والمخربة .

كلها تحولات خِلقية ودماغية صار الرجل القوي ، بتشجيع من عرافته الأثيرة ، يعول عليها في مواجهة الخصم وقهر المنافس ، بل ويستثمرها في مراكمة المال والماشية والعقار ، وتحصيل القيمة والمعنى . ولم يمض شهر على تلك الترقية حتى أخذ صاحبها يتمم بناء منزل فخم بضيعته خارج المدينة ، ويعمل على تحويل مياه وادٍ عمومي إليها بنية ريِّ مسبحه وبحيرته الخاصة .

" ولدْ الذينَ ! "

بهذا الوصف أو اللقب الجديد تهامس أعضاء الحاشية

وخدام ديوان حضرة النـائب . ولما تنـاهت أصداؤه إلى مسمعه استطابه وتبناه ، وأوله تأويل الخير ، خاصة وأنه يـلائم فهمه للسيـاسة ويواتيه . وفهمه لها هو بـالذات والصفات فهم ماانتهى إليه فهم الذين أدركوا وأيقنوا وآمنوا أنها تدبير القلة ضد الكثرة ، ورعاية الثلث الناجي أو حتى أقل منه بكثير ، وترك السواد البـاقين المتبقين يصـرّفون مصـائـرهم المقدرة بـالصبر والـرضى على عسر الحال وضعف القسمة والنصيب .. البقاء لـلأقوى عند " أولاد الذينَ " ، صار - أكثر مما كان عليه عند السلف - قانونا طبيعيا (وبالتالي علميا) لا غنى عنـه للمـجتمع المتقدم الحي . وعندهم أن من أخل به فكـأنما أخل بـأمن الناس جميعا ، فحقت عليه أحكام الحراسة والعقاب ، التي هي كفرع من أصل اليد التي تعلو ولايعلى عليها .

لم يكن بروطابوراس غبيا إلى درجة الذهاب إلى إفشاء كنه اختياره السيـاسي لأي كان ، بل ولاحتى للخواص الدائرين في دواليب الدولة أو لمقربيه اللاعبين معه رياضته المفضلة : الشطرنج ورمي النبيلات . اختياره ذاك كان يعمل به ويسكت عنه ، لأنه ، كما يصور نفسه دائما ، رجل عملي لا رجل كلامي . ولكن كان يحدث أن يسر بذلك في إحدى جلساته الليلية الحميمية لأقرب المقربين إليه ، وهما مثلا - في ليلة السبت هذا بداره الرئيسية - مستشاراه الطائعان في شؤون السياسة ومسائل الدين . فالأول ، ويدعى زيد الخلطي ، شيخ غريب الأطوار ، له في الفقه المالكي بضاعة وفي التصوف طريقة تدعو إلى استصغار الدنيا ومهادنة السلطان ؛ أما الثاني ، فهو بومهمة - السالف الذكر - الذي

هو أيضا وسيط الرجل القوي في عمليات كثيرة ، منها مؤخرا تمكينه من حصول مشبوه على شهادة في الحساب وأخرى في القانون الجنائي . وهو في جلسة الليلة ، كما في كل الجلسات ، عبارة عن آلة لسرد جمل ومأثورات لا وظيفة لها إلا أن تنزل على سيده دغدغة وتملقا ، فينال منه لقب " الأستاذ " .

- السياسة ، أعزك الله ، و قالها أسيادنا الأولون ، هي فن الممكن . وقالوا : ليس في الإمكان أحسن مما كان .

بعينيه الفالتين (الموصوفتين أعلاه) وبصوت ملعلع أجاب ، وهو يقرع بيد كأس شايه بكأس مخاطبه ويلامس بأخرى عباءته الفضفاضة :

- تعجبني وتفرج عني ! فن الممكن تقول ، يا سلام ! الممكن نديره ، وما علينا نفعله ، والبقية على الله . إنما بنو آدم كثروا وتناسلت مصائبهم وتعددت . لكن مادام من الممكن عندهم أكل الشعير والنخالة ، وليس سف التراب ، ففي الأمر أمل وفي فن السياسة نفع أكيد .. والفقيه ماذا يحكي ؟ اشرب شايك ونوّرنا بأنوارك . العوام يبغون من الدولة أن توفر لهم الشغل ! هل لها عصا موسى تقول بها للشغل كن فيكون ؟ دولة المعجزات لم يعد لها في الدنيا من أثر ! إيش رأيك سألتك ؟

اعتقد بومهمة أن السؤال موجه إليه ، فأجاب :

- عين الصواب ماتقوله ، أعزك الله .

- والفقيه الساكت ، ماذا يرى ؟

وجلت نظرات الفقيه وتملصت ، منمّة عن تبرمه من جلسة لايرتاح إليها في عمق أعماقه ، فتململ في مكانه

ونحنح قبل أن أن يطلق كلمات طائرة وجيزة :

- « **ومامن دابة في الأرض إلا على الله رزقها** » ، صدق الله الحكيم .

ترنح بروطا بوراس في أريكته وأخذ يفتعل التأثر والخشوع ، وقبل رأس الفقيه مرتين طالبا منه : " أعد .. أعد .. " ، ثم أهاب به إلى تشنيف سمعه بشيء من الآيات المفحمات ، صائحا : " زدني " ، فجاءه منه :

- « **والله فضَّل بعضَكُم على بعضٍ في الرِّزق** » ؛ وفي آية أخرى : « **إن ربَّكَ يبْسُطُ الرِّزق لمن يشاءُ من عباده ويَقدر** » ؛ وفي أخرى : « **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون** » ...

- وتلك الآية التي تكررها عليّ حتى حفظتها : « **إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » . إذن ، على المعوزين والفقراء أن يغيروا ما بأنفسهم لا ما بنفس الدولة ، وأن يعرّوا عن ذرعانهم ويكدوا أو أن يسيحوا في الأرض طلبا للرزق . أليس الحق هذا يافقيه ؟

- « **والله جعل لكم الأرض بِسَاطاً لتَسْلُكُوا منها سُبُلاً فِجَاجاً** » . وجاء في الأثر على لسان علي كرم الله وجهه : " الغنى في الغربة وطن ، والفقر في الوطن غربة " .

انشرح وجه بروطابوراس وابتسم بسخاء ، قال :

- أنعم أسيدي ! أرض الله واسعة عريضة . رحم الله من قال : " من ضاق به الحال وهاجر بلاده ، لقي في أرض الله مراده " . اعطني ألفقيه رأسك أبوسه على كلام سيدنا علي صاحب السيف الماضي ، باعج الغول والدجال . إنما قل لي : الفقراء وأصحاب الدخل المحدود ، ألا يقرأون الدين ؟ هل تجيبني هذه المرة أم تقول لي " الله يهدي الجميع ؟ "

- « **إنك لاتهدي من أَحْبَبْتَ ولكن الله يهدي من يشاء** » .

- هز قلاعك ألفقيه ، وادخل بيتك ، وفكر في جواب صحيح لسؤالي ، خذ هذه البركة لك ولجماعتك ، وصِّهم بالدعاء لي وبشِّرهم باقتراب وقت الولائم وليالي الأذكار .

نهض الفقيه متثاقلا ، مودعا ، وقصد الباب وحده ، وشفتاه تهمس كلمات مناجاة : " لماذا أنا هيدورة في بيوت ذوي القوة والجاه ؟ لأن وعيي ، يا ربي ، غارق في أوعية حضرتهم ، ومعدتي لاترتاح إلا إلى موائدهم . فمتى تغنيني عنهم أنت الوهاب المتعال ؟ "

ما أن غاب الفقيه حتى أقدم خادم ، فوضع مائدة جرارة بين الرجلين ، ثم ملأ كأسين كبيرين بالشراب ومدهما لهما قبل أن يرتب صحينات « القطعة » ويختفي ... شرب بروطابوراس نصف كأسه دفعة واحدة ، وعبس فجأة مفكرا في خلو كلام الفقيه من الإيضاح والإفصاح واكتفائه في الغالب الأعم بإيراد الخبر الشرعي من دون تعليق ولاتأويل ، فخامره بعض الشك في وضوحه ووفائه ، حتى تخيله واقفا معه بنصف وبنصفه الآخر مع قوة محجوبة ، يرتب معها أوراقه وحسابه .

وأراد التيقن ، فسأل جليسه وهو يحك أم رأسه :

- حدثتني سابقا عن حاجب أندلسي قديم ، ذكرني به من دون تفاصيل .

انتفخ منخر بومهمة ، ولمعت جبهته زهوا ، قال :

- محمد بن أبي عامر ، الملقب بالمنصور ، عشيق صُبح أرملة الحَكَم الثاني ، حاجب ابنيهما هشام ، الخليفة الطفل . إنه كبير وزراء الأمويين في الأندلس السليبة ، ذو

المكانتين العاليتين ، مكانة صدر الدولة ومكانة قلب صُبح ، العـــريفة الـمـــدبرة من خلف الستار في أواخر الرابع للهجرة ...

أتم بروطابوراس شرب كأسه ، ثم تأوه وأمر مقاطعا :

- تكلم فيما شئت ، إلا تلك المرأة ، فلا تذكرها . صُبح ميدالية المنصور الخاصة ، وأنا وا أسفاه لم أنل مثلها !

يضعف الرجل القوي حين يطأطئ للسكر رأسه ويميل إليه . عنـدئذ تفلت منه رموز جـرحه الـدفين الكـامن في اسـتبداد زوجته عليه ، حتى إن خصـومه باتوا يسمـونه : " رجل الحــاجّة " . وعن هذا الاستبداد سرت في حواضر البلاد حكايات تفسره بعقم الرجل وسوء فحولته ، وبكون الحاجّة تقبض على أنفاس بعلها لما تعرفه عنه من أسرار ، وما فعلته من أجله حتى صار ذا شأن وشأو ولم يكن من قبل شيئا . قوتها تكمن في أنها تملك في خزائنها الآمنة ملفه السري ، كما تكمن قوته هو في امتلاك أسرار ملفات أهم رجالات الدولة وفطــاحلها . وعزاؤه في تحمل نفوذ امرأته وحجرها عليه أن يردد أمامها مختالا أو أمام المرآة ممتعضا : وراء كل رجل حديدي امرأة حديدية !

برم بروطـابوراس شاربه ، وشرب كـأسا ملآى ، كـأنه يروم الصحو من كبوة أو محوَ رسم زلة . تاهت عيناه بحثا عن خيط الكلام المفقود ، فقال بومهمة بعد أن أفرغ كأسه في جوفه دفعة واحدة :

- ذكرتك باسم الحاجب الأموي ، ولعلك أعزك الله ...

- إيه ... ماذا كان هذا الحــاجب يفعله لو أنه وجد في بطانته فقيها مزدوجا ملتبسا كفقيهنا المالكي زيد الخلطي ،

فقـيه بخـيل القول ، شحـيح الشرح ، لاتعـلـم مايـضـمـر وما يبطن ؟

ـ الوصف الحق مااهتديت إليه . والحاجب ابن أبي عامر ما كان لأن يتخلى عن فقيه مثله خلفه رهط من الفقهاء . الرأي عندي أن تورّطه في تلبية أوامرك المطاعة . وعلى أي حال فإني ، كما كنت ، سأبقى عينا عليه وعلى الآخرين .

ـ أكلفه بمهمة خاصة ، فإذا أنهاها أكلفه بأخرى أثقل منها ... أورّطه في سيل مهامي ، وإن تردد وتلكأ حرشت عليه سرا منافسيه من الفقهاء الشباب .

ـ أو تتقرب من قلوب جمهورهم بتقليد ما فعله الحاجب الأندلسي في زمانه ؟

ـ وماذا فعله الداهية ؟

ـ أمر بـإحراق كتب الـزنـدقة والبدع كلها ، وحبس واضعيها وقارئيها ومروّجيها .

صـاح بروطابوراس ملء شدقيه ، كأنه عثر عـلى كنز أو ضالة منشودة :

ـ القدوة ! الداهية القدوة ! حيِّد أمور المرأة والحب وقل إنه إمامي في كل شيء .

وكيف لايصبح مغتبطا متغطرسا ، وهو منذ شبابه قد آمن إيمـانا فولاذيا أن الفتن والقـلاقل كلها إنما تبدأ في الرؤوس ، وأن نارها لاتشعلها وتـزنـدها إلا رؤوس التبدع والتفلسف . ومنذ بداية احتكاكه بالسلطة صارت رغبته الـدفينة الأكـيدة أن يلـقي القبض على رؤوس الفتنة ويهرسها ، أن يجفف دماغهم ويمرغ أهواءهم وأفكارهم في أوحال الطـأطأة والخضوع ، أن يتلف كتبهم بـالنار والماء

القـــاطع ، فتـــرجع الفتنة هباءً بل هراء . أما الأتباع والرعاع ، فأمرهم عنده كنفض غبار أو حمل خردلة : إيقاع العداوة والبغضاء بينهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ورش أعصـــاهم بـــالـــرشوة والهبات ، فيتشتت شملهم ويهرع سوادهم إلى غيرانهم صاغرين ، طالبين العفو والسلامة .

أقبل شاب حـــاملا آلة طـــولكي وولكي ، وانحنى على مشغّله هامسا في أذنه كلاما ، ثم انصرف وتابع الرجل كلامه نافخا في سيجاره :

ـ عقيدتي يا أستاذ تعرفها . هي طريقتي لاتقاء شرور الفتنة والقتل ، هي ميزاني في إدارة دفة الحكم ، هي عصاي في نشر أعلام الأمان والأمن . وإن كان مـــافعله الداهية القدوة يضـــمن لي رضى الفقهاء ، فأنا مـــعهم في ما أرادوا حرقه من كتب وأوراق ... أنا معهم .

تهادى بومهمة في قعدته ، وتقبل من جليسه كأس مدام طافحة ، قال :

ـ ويك ويك ألحق ! عين الحق مايقوله سيدي ، ووريث سر أسيادي : ابن أبي عامر وسلفه العراقي الحجاج بن يوسف الثقفي ، وخلفه المغربي عمر الفودودي ، وغيرهم كثير . غايتـــهم غايـــتك ، ومـــناهجهم منهـــاجك ، وفـــقك الله لما قصدوه وحققوه .

شرب بروطابوراس كأسه دفعة واحدة ، وقلده جليسه ، ثم أردف سائلا :

ـ الفـــودودي والحـــجاج قلت ، هل هـــما مـــثل ابن أبي عامر ؟

ـ هما مثله في قوة البأس والشكيمة ، وإن عمل كل على

شاكلته ... الفودودي هو قاتل الأمير أبي عنان خنقا بمخدة على فراشه ، وهو المستبد على دولة بني مرين إبان الثامن للهجرة ...

- خنق الأمير بمخدة ، العجب هذا !

طافت برأس المتعجب صور سريعة متلاحقة ، فرأى نفسه في حلكة ليل بهيم يتسرب إلى غرفة نوم رئيسه الفهد ، فيأخذ مخدته ويخنق أنفاسه تحتها ، ثم ما إن يتم فعلته حتى تتسلط عليه الأضواء والأيادي ، فيُلقى عليه القبض ويُقتل رميا بالرصاص ... فجأة ، وكأنه صحا من رؤيا كابوسية ، صاح وهو يرشف كأسه الطافحة :

- لا ، لا ، مافعله الفودودي لاأقدر عليه ... والحجاج هل هو أيضا رجل قوي ؟

- رجل قوي وقوي جدا . لولاه لما كانت للأمويين على الحجاز والعراق قبضة . بدأ معلم صبيان ، ثم تجند ، فأبلى ، كسيدي ، في الشرطة والسلطة البلاء الأكبر . حكم العراق بيد من حديد وأمّنها بعد أن تغلب على ثوارها بالضربة القاضية . ضرباته الوعرة المعطبة كانت بالسيف الحاد طبعا ، وبالكلام الدموي البليغ أيضا . ومن كلامه المشهور عند معشر المعلمين إلى اليوم ، ماخطب به في فتحه العراق :"وإني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ، وإني لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى ... "

تململ بروطابوراس في قعدته ولمعت عيناه فرحا ومرحا . رنت آلة الهاتف ، فأخذها ممتعضا ، قال :

- آلو .. نعم .. الله يلعن اباك ! تقطع عليّ المتعة بالأخبار الخاوية يا ولد الكلب ! سد فمك وفتش على مرتك ... أكمل أكمل يا أستاذ كلام الحجاج . أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها .. يا سلام ! وماذا قال الداهية أيضا ؟

أفرغ بومهمة كأسه في جوفه ، وأجاب وفي صوته بعض الزهو :

- درّست للصبيان خطبة الحجاج سنين طويلة ، وإن تضعضعت حافظتي ، فلن تفلت منها أبدا كلمات تحذيره للثوار وهي : " إما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعنّ لكل رجل منكم شغلا في جسده ..."

بإشارات من كل أعضائه وأطرافه ، هاج بروطابوراس وماج ، وشعل سيجاره وشرب ، ثم تهجى :

- لأدعن .. لكل رجل منكم ... شغلا .. في جسده .. أي عطبا .. خللا ، خسارة في صحته .. لم تحدثني عن صاحب هذا الكلام العظيم من قبل ! هو رجل قوي آخر أشعر الآن أنه معلمي وإمامي ...

سكت فجأة ، إذ تمثل الخطة التي بات يعدها ضد من يسميهم رؤوس الفتنة والقيل والقال ، وهي أكثر إحكاما وتقنية من فعلته بمعارضين سياسيين ، أيام توليته الشرطتين ، حيث إنه كسر عود أشجعهم بشتى أنواع التعذيب النفسي والجسدي ، أصابتهم بأمراض ومعاطب ، مثل القرحة والرعدة وداء المفاصل والمس العقلي ، وخلقت لهم حساسية حادة ضد السياسة لغةً واصطلاحا ، وقولا وفعلا ، وصرفتهم تماما إلى دخول سوق رؤوسهم ، لاشغل لهم إلا بأجسادهم ، ولامطلب لهم سوى أن تخف أوجاعهم

بالأدوية ويمهلهم الأجل المحتوم .

أقبل الشاب صاحب الطولكي وولكي ، وانحنى على مشغّله باثا في أذنه كلاما ، ثم انصرف .

- رجال أقوياء عظماء ، لكن قل يا أستاذ ، هل كان في زمانهم مثل هذه الجمعيات الأجنبية الخاطئة شغلها ، حول أشياء حقوق الإنسان وهلم جرا ؟

- الله يلعنها جرة ! فعلا تكاثرت اليوم تلك الجمعيات المتخصصة في التشويش على الغير والتدخل السافر في الشؤون الداخلية ، مع العلم أن وجودها بدعة ضلالة ، لا أصل له في أي زمان ولا في أي شريعة ... لكن عند سيدي ألف حيلة وحيلة ليردها خاسئة ، خاسرة ، متعثرة في أذيالها .

فكر بروطابوراس أنه إنما يفعل بتلك الجمعيات مايفعله الرئيس الفهد بدول أجنبية متنطعة ، إذ يريها - زارت البلاد أم لا - في فنون التمويه والتعتيم أشكالا وأنواعا ... قال مردفا ، نافثا دخان سيجاره ، قارعا كأسه بكأس جليسه :

- رجال أقوياء عظماء ! لكني أزيد عليهم بما صنعته منذ أعوام ولم يعرفوه : شبكات العيون المبثوثة في بؤر البلاد الساخنة ، أقوى بها على الوقاية والعلاج ... رحم الله رئيسي في الشرطتين ! علمني أن المخابرات علم ذو فنون ، السياسة من دونه كامرأة بلا رأس أو بلا قاع ... نصبت الآذان في الجدران ، أقمت شبكات التقاط التواصل بالرموز والأفكار ، أنفقت على مدارس مراقبة التراب ، وخلقت مناصب مالية لمزاولي حرفة جمع وتوصيل الأخبار ، ولايهمني أن يسميها المغرضون المغرر بهم حرفة البص

والسعاية و " التبياع " ... هل من واحد فعل كل هذا من قبلي ؟!

لم يجرؤ بومهمة على إفساد شعور سيده الحاد بسبقه ذاك ، رغم أن معلوماته في التاريخ ، على بساطتها ، تنبئه بعكس ذلك ، فرد متحمسا :

ـ فتحٌ لم ينعم به أحد من الساسة من قبلك ، ومن فطن إلى بعضه بين أمهرهم ، طبقه بنحو فج متخلف ؛ أما أنت ، وفقك الله ، فقد أبدعت فيه وتفننت .

ـ لهذا قبلت لقب بروطابوراس الذي طمأنتني على معناه الأصيل وفأله الحسن .

ـ وكيف لا وقد انتهت تحرياتي اليوم أكثر من الأمس إلى أن ذلك الإسم حمله أكبر حكماء العهد الإغريقي السحيق . كانت عظمة رأسه مضرب الأمثال ، لأنها عنوان عظمة عقله القوي الفائق . ولعل معنى اسمه في لغة بني جلدته ، والله أعلم ، هو " صاحب الرأس الأول " .

ـ وماذا كان يقول ؟

ـ المنفعة ! المنفعة هي الغاية والمقياس ، هي الألف والياء وما بينهما ، ولا منفعة إلا ما حددته الذات وكان في خدمة الذات ...

هتف بروطابوراس مقاطعا :

ـ إذن ، كان يقول " الله معك ياراسي "! وهل كان له أتباع عند العرب ؟

ـ هو لم يكتب شيئا ، إنما كان يتكلم ، فتناقلت الأجيال أقواله إلى أن وصلت إلى حكماء العرب ، فترجموها وحفظوها ، وكان من أكبر أتباعه بينهم رجل ضخم الجثة

والرأس ، يحلف بالعقل ويلهج به ليل نهار وطوال الأسبوع والشهر والحول ، حتى سمي " عقلويه " ، ونسبت إليه فرقة العقلوية ، أو العقلاوية باللام الممدودة .

أطلق بروطابوراس ضحكة منكرة ، وعلق مستنكرا :

- عقلويه ! العقلاوية ! أما هذه الأسماء فلا ...

نظر إلى ساعته ، فأدرك اقتراب وقت صياح الحاجّة بالمناداة عليه ، تخلص من مخداته ونمارقه ، واستقام في جلسته مقدما لنديمه كأسا عامرة على اعتبار أنها " عكاز الطريق " ، كما في قاموس السكارى وعرفهم . قال :

- قبل أن تهز قلاعك ، أخبرني باختصار بما فعلته فرقتك في ما كلفتك به منذ أيام .

- أقل من أسبوع مضى على أمرك المطاع ، والكل تقريبا على ما يرام .

- تقريبا ؟ أريد التمام .

- رجالي انتقوا أنجع العيون وأبصرها بين سائقي عربات الأجرة وعجائز النساء والمتسولين وخدام المقاهي والحمامات ...

- عجائز النساء قلت ؟ هذا قطاع يدخل ضمن اختصاصات الحاجّة ، فلا تقربه وإلا علّقتك من أشفارك .

- أتركه لها إذن ، من دون ندم ، لاسيما وأنه من أصعب القطاعات إطلاقا ، وأعوضه بقطاع الحلاقين ...

- وهذا أيضا أزله من حسابك ، ولاتعول فيه على أي فلس مني .

- ولكنه أعزك الله ، قطاع مهم حساس .. علاقته بالرؤوس مباشِرة وثيقة ، وهي في غنى عن التعريف .

- لهذا السبب كلفت به حلاقي الشخصي . أهل مكة أدرى بخروبها .

- بشعابها ... إذن ، بدلا عن الحلاقين أتكلف بقطاع الحلاقيين . قطاع حيوي لأن أصحابه محتكون بالناس ، عارفون بفنون التنقل والتنكر والكلام . ولعلي ، أنا عينك التي لاتخطئ ، اكتشفت ثلاثة من أمهرهم وأقدرهم في مايهمنا : جبذ اللسن . جسارتهم في طرح أمور السياسة لامثيل لها ، وقدرتهم على توريط المتحلقين في الكلام الصعب لانظير لها . إنهم يعقدون حلقاتهم في أهم أماكن المدينة وساحاتها ، ولكن من السهل عليّ ملاقاتهم بفضل خريطة تنقلاتهم التي وضعها رجالي بدقة وإحكام .

- بموافقتي ضع إذن يدك عليهم واختبرهم جيدا ، فإذا صلحوا عيّنهم في السلك ، وسَمِّ أخبرهم أمينا على القطاع ، ثم كلفهم بما تعرفه من مهام . أما الغلاف المالي ، فحدد سقفه بتواضع ، ولا تبالغ ... خذ عكازا آخر حتى تقوى على السير .

أفرغ الأستاذ كأسه الأخيرة في جوفه دفعة واحدة ، قال :

- قضية أخرى مهمة ...

سُمع صوت نسوي يدوي في رحاب الدار ، ووصلت كلماته المتقطعة إلى النديمين : " حسبي الله .. هذا نصف الليل ! الرواسي سكرتك طالت ! واش صاحبك ما عنده بيت ولا امراه ... يذهب في الحين وأنت جئ دابا " ...

اضطرب الرجل القوي ، وأمر الأستاذ بتأجيل الكلام في قضيته المهمة ، مشيرا عليه بالانصراف وتقصد بيته

منتصبا مستقيما .

حين بقي وحده واقفا وجلا أخذ يتخيل زوجته الأولى ، قتيلته ، وقد برزت من خلف ستارة . كانت كما عهدها : امرأة دون الخمسين ، قوية القوام ، عالية القد ، ذات إشعاع وهمة ، امرأة قيل إنها مصرية الأصل أو متمصرة ، فحك عينيه ، ثم خر ساجدا وهو يهمهم ويخفي قيئه : "يا ست بهية ، يا ست الستات ، يا نور عيني .. يا روح قلبي .. يا الكبيدة ديالي ! أنا في حماك يا للا بهية " . وحين رفع عينيه ، كانت المرأة ، كما تخيلها ، تطل عليه بنظرات هادئة مترفعة ، وبدت وكأنها تقول بصوت حازم رنان : " مُش أنده عليك : سر قدامي . هذه المرة ، تنام وحدك مع سكرك وقيئك حتى يصبح ويفتح " . وتخيلها تطلق إشارة بيدها ، فإذا بخادمة زنجية تقبل مهرولة ، فترفعه من انبطاحه إلى الأريكة حيث تسيجه بنمارق ومخدات وتدثره بأغطية ، بينما ذات الطلعة البهية تعود أدراجها ، تحوطها آيات النخوة والرزانة .

لم ينته الرجل القوي من توهماته إلا بعد أن تلقى رشات ماء على وجهه من زوجته الحية الواقفة جنبه ، وسمعها تصرخ : " أنا للاهنية مَشِ الست بهية " ، وأكدت المرأة صراخها مرات وهي على حافة البكاء ، ثم اقتادت زوجها السكران إلى فراشه ، حيث خلصته من حزام مسدسه وخنجره ، ونظفت أطرافه وأسنانه ، وحين رأته يستسلم للنوم تماما ، فرت مسرعة إلى غرفتها الخاصة ، لا رغبة لها إلا في النوم والنسيان .

أُطفِئتْ معظم الأضواء في أرجاء الڤيلا الداخلية ، وخيم

سكون مطبق عليها . وفي الهزيع الثاني من الليل ، هاهو الرجل القوي ، كديدنه في معظم أوقات نومه ، يتعرض في فراشه لنوبة الارتجاج والقلق ، فيملأ فراغ الظلمة بشخير مرعوب وحركات درئية أو مستغيثة ، كأنما هو يعيش كابوسا يُريه أشباحا آدمية طامعة في تدميره وإتلافه .

وقتذاك كان بومهمة يقود سيارته على الساحل ، متنسما ملء منخاره ريح البحر ، لعله يسترجع بعض يقظته وقواه . ولما شعر بالنوم يدب إلى جفنيه ، كر عائدا إلى وسط المدينة ، ثم توقف لحظة عند مفترق طريقين : واحد يؤدي إلى زوجته القديمة ، أم بناته الثلاث ورفيقة أيام الفقر والضيق ، والآخر إلى زوجته الجديدة ، غنيمة عهد الرخاء واليسر . وإذ طالت حيرته رتب وجهَي القرعة في رأسه ، ونادى على متسكع متمغط في ركن الرصيف قبالته ، وسأله : " بّيل أو فاص ؟ "، فأجابه الرجل من دون تردد : " فاص " . عندئذ انطلق بومهمة في الاتجاه المقترع ، وهو يهمهم : " الليلة ليلتك يا قديمة ! " . ولما وصل إلى باب دارها العتيقة ، أدار في قفله مفاتيحه كلها واحدا تلو الآخر ، لكن من دون نتيجة ... فجأة لامس رأسَه شيء ، فحدّق فيه وهمس مغالبا سكره : " قفة ! هذه قفة .. لها أُذن .. وأذن أخرى .. وهذا حبل !" مد يده إلى داخل القفة ، فألفاه خاويا تماما . التفت إلى مأتى الحبل ، فإذا بالقابضة عليه امرأته ، التي كانت تطل من نافذتها العالية وتراقب تحرشات صاحب المفاتيح بالباب ، ثم سرعان ما نزل عليه صوتها خارقا كالسهم ، حادا كالموسى ، صوتها الذي علمته سنون العشرة الطويلة أن يدرك من نبرته كنهه

ومغزاه . قالت :

- لا تعيِ مخك ، الباب مغلّق من الداخل ... إما تكمل الليل في حضن العاهرة ، وإما أصابعي في أذني وذنوبك على راسك إذا تجمعت عليك الزّقاء .

تمالك الرجل أعصابه وترزن ، اتقاء شر الفضيحة ، فتصاغر وهمس في اتجاه المطلة عليه :

- الحبل .. علاش الحبل ؟

- تطلع به إذا قدرت ...

- والقفة .. القفة ؟!

- مالك خايف ، يا مولى الشان ! عَلِّ صوتك .. إيه القفة .. قفة النفقة يا بوشكارة ، وعلى قد مقامك الجديد .

لم يكن من خيار أمام بومهمة إلا أن يضع أوراق بسطامه في القفة قبل أن ينحسب مهرولا مخذولا تحت وابل من أدعية امرأته عليه ، لأنه حيال علو كعبها في فن الولولة والتعييط والصرصرة ، لاحول له ولاقوة .

العاهرة في تسمية القديمة هي زوجة بومهمة الجديدة ، زوجته التي أخذها ذات يوم " بالأوتوستوب" قبيل ترقيته الإدارية المباغتة ، ثم اضطر إلى العقد عليها وإيوائها في منزله الجديد بحي محروس راق . حين اقتحم عليها غرفة النوم ، وجدها كعادتها نائمة منطرحة على الفراش ، مومياء متنفسة ، تفوح منها روائح العطر والسكر والخمول . وبحذر شديد ومن دون أن يشعل ضوءا ، خلع ثيابه واندس كالحنش تحت اللحاف .

تحت اللحاف يعرف بومهمة حدوده التي يحسن به ألا يتعداها ، وإن فعل وتجاسر على النائمة باللج والإلحاح .

كما حاول ذلك في السابق ، فويلمّه منها يا ويله !

مفرّجا عن حنقه وغيظه ، أخذ كالمعتوه يكلم نفسه بصوت خافت مسموع ، يشكو من مصيبته الزبّاء ومن خيبة أمله المريرة في امرأة عبثا يشي جسمها ولون شعرها وهيئتها أنها عصرية جدا ، امرأة هجر من أجلها زوجته القديمة ، معولا عليها في ارتقائه السلم الطبقي وتغيير أثاثه ومأكله وملبسه نحو الأحسن ، وفي مرافقته إلى " الكوكتيلات "و" البيكنيكات" ، معولا عليها في دخوله إلى حياة العصر المتطورة من الباب الواسع ، فيعرف وجوده بدعمها ودفعها قفزات كيفية دالة ؛ إلا أن تعويله - واحرقتاه ! - سرعان ما انهار وكالسراب تلاشى وتبخر ... " يا المزوق من برّا آش اخبارك من داخل !... الله يلعن الأتوستوب واللي يجيء منه .. ضربت على الحصار حتى اصطدم راسي بزجاج السيارة .. حسبتها كرمة وفيها الكرموس ، طلعت طلية عامرة ناموس ..." هكذا ختم الرجل هذيانه قبل أن يستسلم لنعاس متقلقل مهزوز .

أما المرأة الشقراء ، فالحقيقة أنها إنما دأبت على اصطناع النوم للإفلات من عشرة زوجها على الفراش والتدرق من وجهه وتحرشاته الجنسية الخشنة الرعناء . وهذه المرة ، كمرات سابقة ، التقطت نتفا من هذيانه ، وحالها أنها ، من تحت اللحاف ، تشكو بدورها سرا من جروحها الدفينة ، وتبكي من دون دمع على سقم أيامها وذبول ربيعها الثلاثين .

4 بومهة والمرأة ـ الشوكة

في يوم كل خميس بعيد العصر ، تعوّد الرجل القوي على استدعاء أعوانه ومستشاريه الذين تطلق على بعضهم تجاوزا صفة وزراء بحقائب معينة أو بدونها ، كما تعوّد على تركهم منتظرين قدومه ساعة أو أكثر ، وذلك بمعية مستشاره بومهمة ، السالف ذكره ، الذي تعوّد بدوره على تزجية الوقت برمق الحضور بعين فاحصة متطلعة ، والإنصات إلى همساتهم بأذن دقيقة لاقطة . وحين يبدأ في النظر إلى ساعته ويرش خفية يديه وعنقه بعطر من قارورة كانت لاتفارق جيبه ، فمعنى ذلك أن وصول سيده وشيك جدا .

لكن تقديره هذه المرة لم يصدق ، فطال الانتظار ساعتين و أكثر ، وتهامس المجتمعون بكلام خفي مرموز ، التقط بعضه بومهمة وأتلف البعض . ومما قبض عليه ووعد نفسه بفك شفرته : " ويك تكون العقرب تحككت بالأفعى ونحن هنا في اجتماع الغفلة ! " ؛ " ويك يكون السيل بلغ الزبى والكربلا واقعة ، ونكون هنا جالسين ، قابضين على هب الريح والرملة ! " .

فجأة دخل شاويش على رؤوس قدميه ، فانحنى على أذن بومهمة وبث فيها كلاما : " حضرة الرئيس غائب في مهمة . اترك الاجتماع وخلهم في الانتظار " . وفعلا تحين المأمور فرصة انغماس الوزراء في التهامس والإغفاء ، فانسل من جمعهم كالشعرة من العجين ، وهرع إلى خارج البناية ، فامتطى سيارته الخاصة ، وطاف بأرجاء المدينة وشوارعها باحثا عن تبديد قلقه ودوخته . وفي آخر المطاف استقر رأيه على أن يلوذ بحضن زوجته الجديدة ، العصرية

جدا ، التي أخذها ذات يوم " بالأوتوستوب " قبيل ترقيته الإدارية المباغتة ، واضطر إلى العقد عليها وإيائها في منزله الجديد بحي محروس راق .

حين اقتحم على العصرية الشقراء غرفة النوم ، وجدها كعادتها منطرحة على الفراش ، مومياء متنفسة ، تفوح منها روائح العطر والسكر والخمول . وفي هذه المرة ، خلافا لمرات كثيرة ، لم يجد بومهمة بدا من الإلحاح في إيقاظ النائمة والتحدث معها ، ليس بنية فهم وجودها أو تحسين علاقته بها ، بل فقط للتشويش على انزعاجه لغيبة الرجل القوي عن موعد اجتماع ظهر اليوم . وانزعاجه هذا كان شديد الوطأة على صدره ، هو الذي يعلم علم اليقين أنه هالك لا محالة إن حلت بذلك الرجل نكبة في وضعه أو مصيبة في جسمه . فهو من دونه كغريق لايحسن العوم ، بل كبعوضة معرضة للسحق .

قال في نفسه قبل أن يشرع في زحزحة النائمة المخدرة : هذه المرأة كان يلزم أن تكون في حياتي غلطة عابرة أو سحابة صيف ، فها هي اليوم تسكن عندي وتسكنني ؛ هاهي تعذبني بغيبوبتها المتصلة ، وتورطني في العجز عن كسر شوكتها ... لو كان السبيل إلى إبادتها سهلا لسلكته طوعا ، لكن هيهاي !

أخذت صريعة الكرى في هجر أدغال غيابها حين أغرق الرجل الغرفة في صخب موسيقى كانت من قبل منبعثة بخفوت من التلفاز ، وذلك بعد أن لم تفلح يداه في إيقاظها . سألته ، وجفناها مطبقتان ، عن هويته فاضطر إلى الصدع باسمه ، ثم رآها متثاقلة تنهض وتقصد الثلاجة ، فتخرج

منها مأكولات ، ثم تعود إلى فراشها ، حيث تجلس وتشرع في التهام ما بين يديها . سألته مستغربة حضوره ، وهي تشعل سيجارة وتمرر بيدها على شعرها المشعث الثائر :

- آش تبغي ؟

خفض بومهمة موسيقى التلفاز ، أجاب :

- أبغيك أنتِ !

ندّت عنها ابتسامة فاترة أتبعتها بتثاؤبات وحازوقات ، قالت :

- تبغيني أنا ... تغيب كل هذه الأيام والليالي وتعود تبغيني !

لم ير الرجل فائدة ترجى من محاولة إقناعها بأنه جاء بالأمس وأمس الأمس ، ونادى عليها ، لكن لاحياة لمن تنادي .

أردفت المرأة قائلة :

- ربما جئتني بالأمس وعجزت عن إيقاظي . نعاسي سلاحي كان أقوى منك !

هش لها وبش ، قال بصوت المناجاة والترجي :

- أريدك ، يا سارة ، واقفة ورائي وإلى جنبي .. أكتافي بحاجة إليك .. كيف أفسر لك : وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة ..

فقاطعته صارخة :

- وأنا ، يا رجل ، من يقف معي ؟ أنا مريضة ويخصني طبيب ! مريضة بأهلي وأمي ، مريضة بالأيام والأسرار الكحلاء ، مريضة حتى بك أنت . أكره وجهك وروحك . أكره نفسي في عشرتك . أكره جسمي في فراشك ...

ارتج الـــرجل في قعـــدته ، ورأى كلام زوجـته لايليـق بمقامه ، فامتعض وتقزز، ثم صاح مقاطعا :

ـ مــريضة بي أنا ! سدّي فمك يا امرأة وإلا هــرسته ، أعـتقـتك مـن قـيـعـان الـعـار والـرذيلـة ووفـرت لـك كـل شـيء ولاتحمدي الله ! الحيوان أفضل منك يا نكارة الخير ...

ـ تحـسـبني دابة تعلـفها للحـرث والـمخـض ، ومن بعد ما تبلى تبدلها بأصغر منها ! هذي الدابة تقول لك اليوم : هذا فمي هرسه إذا بغيت . ومن الآن ما عندي معـك كلام إلا بحضور المحامي والشهود .

قالت كلامها ، ونحت صحن المأكولات بعيدا عنها ، ثم اختفت تحت أكوام اللحف . أما بومهمة ، فبقي مذهولا ، يتأمل مأساة أول حوار بينه وبينها منذ تزوجها ، ففضل تأجيل الحسم في ملفها ، محجما عن ضربها حتى لايتدخل الرجل القوي في الأمر ، كما فعل مرة من قبل بنحو مبهم مريب ؛ فضّل ذلك أيضا حتى يوفر قواه لمهام الغد والأيام القادمة ، فأطفأ التلفاز والضوء ، وخلع ثيابه ، ثم اندس كالحنش تحت الأغطية ، متربصا بالمستعصمة الجافلة الدوائر ، محاولا عبثا انتهاك منـــاعتها وإنهاء إضرابها الشـــامل عنه . وحين أيقن من عجزه المبرم عنها أشعل سيجارة وصار يـدخن بعصبية ويفكر في مفارقة فادحة أليمة : المرأة الحنطة بـــاللحف زوجته شـــرعا ، ولكنه لايستطيع إليها سبيلا ؛ المرأة المكـــومة المـــرصـــوصة كالإسمنت ، بمقدوره عضليا أن يهزمها ويستبيح جسمها ، بل وأن يكسر شوكتها ويخنق أنفـاسها ، ولكنه يخشى العواقب والذيول ماظهر منها وما بطن . ضعفه أمامها هو

الساعد الأيمن للرجل القوي ضعف ثابت ساطع . وفي مرآة وعيه المرير به راود النوم ، فلم يفلح إلا بإغفاءات قصيرة متقطعة ، تحف بها أحاسيس الغبن والحسيفة .

قبيل انبلاج الصباح ، طغى على بومهمة شعور فادح بالمذلة والمسكنة ، فثارت ثائرته وأراد رد الاعتبار إلى مقامه ورجولته . دخن بعصبية وشرب من الخمر حصة عالية كيما يقوى على شحذ قراره بالهجوم على الناعسة ، المتمغطة المتسجية جنبه ، قال في نفسه : " الاغتصاب شيء وإرغام الزوجة الحلال على طاعة زوجها في الفراش شيء آخر " ... بسمل وكبّر ، ثم زفر واستنفر ، ثم أجهز على المرأة بكل ما أوتي من قوة ، كاشفا لحفها ، ممزقا ألبستها الداخلية ، محكما القبض على أعضائها الزائغة ، لكن ما إن اقترب من مرماه وهيأها تحته حتى فوجئ بانتفاضتها العارمة الصامتة وبانقلابها الساحق عليه . سعى إلى الانفكاك منها بنية إعادة ترجيح كفته ، فقاومته مقاومة شرسة لم يعرف مثيلا لها عند أي أنثى من قبل . عاركته وتدحرجت معه خارج الفراش على الأرض ، تكورت معه وهي تنهش حنكه بأظافرها الحادة وتكشر عن أسنانها تلويحا بالعض . وحين تمكنت من الاستواء عليه استسلم لها ، بل استحلى في سريرته وضعها فوقه ، لكن سرعان ما اغتم لما استلت من جيدها سكينا ماضيا ، وجرحت به أنفه قبل أن تضع الشفرة على رقبته وتهدده بالنحر إن هو أفسد عليها نعاسها أو حاول اغتصابها مرة أخرى ، ثم اعتصمت بفراشها وجلست القرفصاء ، ممسكة بسكينها ، متهيبة لكل الطوارئ .

جارًا ذيول الارتباك والذهول ، هرول المهزوم إلى الحمام ، فنظر إلى المرآة نظرة أفصحت له عن أضرار المعركة عليه : حنكان مثخنان بالندوب الدامية ، أنف راعف مجروح ، عينان مبيضتان من الرعب ، والكل في وجه ممتقع شاحب كظيم . عرض رأسه كله لأنبوب الماء البارد طمعا في غسل جروحه وتهدئة أعصابه . وبعدها حاول إيقاف النزيف بنشافة مبللة بالكحول ، وحين أفلح وضع ضمادة على أنفه واستعد للخروج . شعوره بالحرج والعار منعه من النظر إلى المرأة وهو يسحب ملابسه من غرفة النوم إلى الصالون حيث ارتدى بذلته وعقد ربطة عنقه كيفما اتفق . ثم ، وهو على عتبة الباب ، تناول من جيبه هاتفه ليجيب على رناته ، فإذا بصوت يأمره بالحضور حالا إلى ديوان حضرة النائب . انشرحت قسماته لكون حاميه وولي نعمته مازال حيا يرزق ، لكنه ما لبث أن عبس وتجهم لما تذكر أن عليه أن يعد تفسيرا مقبولا حسا وعقلا لأعطاب وجهه وندوبه .

فكر في احتمالين : إما أن يصطنع حادثة سير ، فيروي أن جروحه من آثار ارتطام وجهه بشظايا زجاج سيارته الأمامي ؛ وإما أن يدعي أنه تعرض لاعتداء من بعض النسوة الغاضبات على سياسة قمع المرأة والميز الجنسي . لكنه في آخر الأمر ، آثر ، وهو في طريقه إلى داعيه ، أن يقول الحقيقة ، كل الحقيقة ، ولاشيء غير الحقيقة ، حتى إذا أقبل يوما على قتل الشقراء برأت ساحتَه الظروفُ المخففة ، وحظي بحماية سيده الذي لايرضى أن يكون أقرب أعوانه متزوجا بعاصية متهتكة ومسلحة معتدية ، ويكون

مغلوب امرأته .

في حضرة الرجل القوي ، جلس بومهمة يرمقه من طرف خفي وينتظر فراغه من مكالمة هاتفية . لاحظ عليه أمارات النرفزة والتعب ، وتعجب لطريقته في سف سيجاره بلهفة وإصرار ، كما يفعل الوليد الجائع برضاعته . ردد في نفسه : يا حفيظ يا ستار .. اللهم أسمعنا أخبار الخير! . حين فرغ النائب مما كان فيه نظر إلى خديمه نظرة تائهة وهو ينقر منضدته بقلمه ويقول :

- قلاقل مع بعض الخصوم ، تغلبت عليها بعون الله والرئيس ... إنما لابد من الحيطة والحذر . العقيد الركن حمدان الأحرش ، عينك وعيون أعوانك عليه حتى تجمع لي أخباره كلها .

تململ بومهمة في قعدته واصطنع ابتسامة عساه بها يبث بعض الانشراح في صدر مخاطبه ، قال :

- أعزك الله سيدي وقواك على من عاداك .. علاقات ذلك الرجل مع بعض تجار الحشيش لاتخفى عليك ...

- هذا لايكفي ، عليك بتسليط العين على احتكاكاته بمافيات القوادة والدعارة .

- زاوية وعرة تستحق التفتيش ، أوفّر لك فيها قريبا ما تريد .

- قل لي : تصور أن زوجتك فاجئتك أثناء مشادة كلامية باطلاعها على سر خطير لم تفكر يوما أنها تعلمه ، فما أنت فاعل ؟

حك بومهمة ضمادته وحنكه ، ورأى في السؤال لبسا محيرا ، قال متعلثما :

- إن كانت .. تساوم بالسر .. يحسن كسر شوكتها وتدبير اغتيالها .

- وإن كانت من قبل أعلمت به آخرين ؟

- وجب استنطاقها حتى تخبر بالعالمين ، فيقطع دابر الجميع .

- وإن قطع دابرهم وظهر أن السر مازال متسلسلا على ألسنة أخرى ؟

- هنا وقف حمار الشيخ في العقبة ، وما أدراك ما العقبة ! لكن ليطمئن قلب سيدي . سأبحث في تراجم الأقوياء السالفين عن نازلة مثل نازلتك ، وآتيك حولها بزبدة حيلهم ومخارجهم ... الرجال العظام عظام لأنهم أقوياء في المحنة والضراء ، أشداء على الأعداء من الذكور والإناث .

أطفأ بروطا بوراس سيجاره وندت عنه ابتسامة سيئة مريرة ، قال :

- اللهم احفظني من شر النساء ، أما الرجال فأنا قادر عليهم ... اذهب الآن إلى شغلك .. موعدنا جلسة ظهر يوم الخميس .

مخفيا وجهه بيده ، ردد بومهمة : « **إن كيدهن عظيم** » ، ثم انصرف إلى عمله وملء ذهنه سؤالان عويصان محيران ، أحدهما : " لماذا لم يسألني حضرة النائب عن ندوب وجهي ؟ " ، والآخر : " ما هو السر الذي يزعزع الرجل القوي و يربكه ؟ " .

أما هذا الأخير ، فقد ظل لحظات معتصما بمكتبه ، مغمض العينين ، ممدد الرجلين على المنضدة . تفكيره برمته منصب على زوجته الحاجّة هنية التي فاجأته صبيحة الأمس

بين يدي الخادمة الزنجية وهي تدلك بطنه ، فعاركته بالكلام القبيح ، ونطق لسانها بجملة أيقنته أنها عالمة بسر خطير ، سر تدبيره مقتل زوجته المصرية أو المتمصرة ، أيام كان على رأس الشرطتين ، وذلك بتحريض من الرئيس معمر الفهد الذي ادعى له أن المرأة ضالعة في التعاون مع جهاز استخبارات لبلد أجنبي خصم . ومع أن تحرياته اللاحقة في الأمر أبلغته أن الرئيس الداهية إنما ورطه في تلك الفعلة ليقبض بها عليه ، ويتحكم في خطواته وأنفاسه ، إلا أنه وجد عزاءه في اقتناعه بأن سرها لايعرفه أحد غيرهما . أما الآن ، فالموقف انقلب وتخلخل بفعل جملة واحدة صدعت بها الحاجّة هنية في وجهه : " والله ما تكون نهايتي بحال نهاية الست بهية على يدك " . تخمينات وافتراضات شتى تلاطمت في ذهنه ، فلم يقف إلا على أقربها إلى الظن والترجيح : أن يكون الرئيس قد سرب السر إلى امرأته بحيثيات وتوصيات حتى يزيد في إخضاعه ويذكّره أن لا قوة فوق قوة الرئيس . وتعزز هذا الظن حين تذكر أن هذا الأخير يحرّم عليه التفكير في تطليق الحاجّة أو هجرها . وبينما هو يدقق ويقيس إذ جاءته مكالمة من ديوان الرئيس ، تأمره بالقدوم إليه بعد ساعة ونصف ، فانتفض واقفا وأجرى أمام المرآة تمارين على تقويس الظهر وإحناء الرأس وخفض البصر ، ثم غادر مؤسسته على عجل حتى يكون سباقا إلى الموعد ، آخذا حصته من وقت الانتظار .

5 عودة إلى الحلقات

ظهيرة يوم السبت ، كانت حركة الحياة في ساحة " كان يا ما كان " آخذة في التكاثف والانتشار ، وفاعلوها هم على الدوام الآدميون ودونهم الدواب . أما العربات ذات المحركات والعجلات الأربع ، فصارت ممنوعة في الساحة منذ فرض الرجل القوي على هذه اسمها الجديد المشار إليه أعلاه . وهناك إجراءات أخرى تـــلاحقت لتحـــديث أحوال المرور والتجمع والتسوق والأكل في عرض الساحة وطولها ، ومنها تنظيم مواقع الحوانيت بحسب موادها وخدماتها ، ومنها مراقبة جودة وأسعار المأكولات والمشروبات ، ومنها مطاردة أبناء العراء والمتسولين والمرشدين السياحيين المزيفين ، وكلها إجراءات اتخذت لنيل رضى السياح الأجـــــانب والحيلولة دون سقوطهم في المصائد وإصابتهم بالإسهال والحكة ، ثم عودتهم إلى أوطانهم ساخطين نافرين ناقمين ، مقسمين بالأيمان المغلظة ألا يعودوا .

أما الأهالي الذين ظلوا يسمون الساحة باسمها القديم ، فقد استمروا على أي حال ينظرون إليها وكأنها عبارة عن رئة جماعية يتنفسون بها الصعداء عند ارتيادها ، ويفرجون عن بعض شدائدهم وكروبهم . وتناجى كثير من الوعاة وأصحاب الأذواق الفنية بـــــالقدح في تلك الإجراءات ، معتبرينها نسفا لأصالة الساحة التليدة ، وقضاء على فوضاها الحية الغبراء العجيبة .

كان الناس فرادى وجماعات يذرعون أرجاء الســـاحة بخطوات وئيدة متثاقلة . البنات والنساء يأتين إليها للتبرج ولوك العلك والكلام ، والشباب والكهول يرتادونها للتفرج والتحادث ولمآرب أخرى ، والبهاليل والمجانين يصـولون

ويجولون عارضين للمشاهدة حماقاتهم وحتى ألسنتهم ؛ لكن يبدو أن همَّ الجميع الأكبر لايعدو أن يكون تمضية الوقت وقتله بالمشاركة في واقع الزحمة والتفاف الساق بالساق ، أو بارتياد محطات الأكل والشرب أو التفرج على أصحاب الحلقات ، من عشابين وعرافين وقصاص وباصقي ألسنة النار ومروضي القرود والثعابين ، وغيرهم .

كان بعض رجال بومهمة الموجودين في الساحة يتبارون في تشغيل عيونهم وكل حواسهم لأداء ماكُلِّفوا به في شؤون الرصد واللقط ومعرفة ما يروج . أما معلمهم ، المرتدي سلهاما خفيفا ، الواضع نظارة سوداء على عينيه ورزة على رأسه تكاد تخفي جبهته ، فقد كان بدوره ينتقل بين دوائر الحلقات إلى أن عثر على ضالته في شخص حلايقي تمكن أعوانه من استقطابه ونظمه في الخدمة . كان عليه أن يختلط بالمتحلقين ويصبر على الوقوف والزحمة حتى يمتحن الخادم الجديد في قدرته على الكلام وجبذ الألسن . ومما تناهى إلى سمعه وأعجبه من أقوال صاحب الحلقة :

أنا الحلايقي بوعزة جايل دوار

راني بحالكم مغلوب ومقهور

تابع عضّه د الخبز بين الصفيحة والمسمار

كلنا في الهم سوا

نَتْكركبُو مع الأيام والعمر زفت ودخان

غير فينا العارف بسبب الداّ وفينا الجاهل بوغفله

وكثار بنو غفلون

الواكلين لسانهم مع التكلاخ والمعجون

(أصوات كثيرة : **كلامك يا بوعزة صح ومعقول .**)

حياتي بحال حياة كثير من الخلايق

يحكيها منا من صار فايق وعايق

ودروسها كثيرة اسمع بعضها تبقى معنا لايق :

تفتش على بن آدم بالفنار

في النهار الجهار

أو بالريق الناشف

ما توجد غير الأشباح

وهذا سارق أو سفاح

وهذا مهزوم أو خايف

واش كلامي صح ومعقول أو هو وش وخرايف ؟

(أصوات : كلامك يا بوعزة صح ومعقول .)

هذا واحد في التّخاب جا الحي النوار

ذابح الأكباش ورامي العار

واسميتُه عند الناس هي مول البار

قال : " هذا ولدكم البار

جايب لكم هذا الشعار

أنا منكم وأنتم مني

طامع في البار .. لمان

ها عار ربي ساعدوني ، ها عر ربي طلّعوني

وأنا وحق هذا الطعام

حتى ناخذ لكم الثار " ...

وما مشى مول البار حتى قضى حاجتُه بهذا الكلام

إيوا قولوا معي ألمسخ هذا !

(أصوات : ألمسخ هذا !)

يا كمْ حالتنا ما هي حاله

غايصين واحلين وحدنا فيها

ما عاد غيرنا يشوفنا

بعدمّا ميكو عيونهم ودوروا عليهم الأسوار والهاله

صاروا هم فين وحنا فين

كلما سرقوا البقره وتفكرونا تصدقوا علينا بالكرعين

واش كلامي صح ومعقول أو فيه قلة الحيا والدين

(أصوات كثيرة : كلامك أبو عزه صح ومعقول .)

وأنتم شايفين

واخا العظم وصلُّه السكين

وحياتنا فقر وغبينة

واخا الجوع والنوع والبكا بلا دموع

راحنا دايما ساكتين وصابرين

وفي جوانا داخلين

ياكم دايماً من خيالنا خايفين

ودايماً راضيين باللجام والشكيمة !

(أصوات : لا ما راضيين .)

ياكم ربِّينا أولادنا على الخوف والطاعه

علمنـــاهم يقـــولوا للشمس ولو في الحـــر والقحـــطة :

أشمشا للا ...

(يتـــابع أطفال الحلقة : ما تمشي من دارنا / حتى يجي عمي قوقو / ويرفدك على عنقه / ويدور بك من دار لدار / حتى الحانوت العطار / يعطيك طويبه د السكر .)

ويقولوا للشتا ولو في الصمايم والغرقه : ألشتاتتاتتا ...

(يتابع الأطفال : أولاد الحراثة / المعلم بوزكري / وجّد لي خبزي بكري / رابّا حـالف فيَّ / يقطع لي رجلي / بـالسكين

والذهبيه / أبقرة نطاحه / تنطحنا بثلاثه / والرابع فينا مشماشة . ")

ياكم نصدق الفقيه إذا قال :

" من بات في خفة من الطعام ، بات الغزلان حـوله حتى يُصبح " !

ياكم قلنا مع القايلين وهتفنا مع الهاتفين :

" حكومة جايره ولا رعيه سايبة " !

(أصوات : " **لا ما قـايلين** " . يصيح شاب طويل القـامة شاحب الوجه : " **واشن أنت معنا أو معهم ؟**)"

أنا مع راسي ، داخل سوق راسي

اللي قطع شي خشبة يجرها

ولساني ما يمضغ به احد الثومه

هذا كلامي يعرف حدّه . ما يزطم في حوض ولايجرح

واللي كان فينا جبّاذ اللسن ما يعوّل على لساني يسرّح ويمرح

ثم مالكم ومال الحكومة

الصغير والكبير يشرطوها بالكلام الغليظ ويحسبها سبب كل المصايب

بحال إلى عندها خاتم سليمان أو قادرة على العجايب

خلوها واعطوها الوقار

را همّها اللي فيها يكفيها

هذا زمان السوق وكل واحد وأنفاسُه

يا ويل اللي خانُه رجليه وصار في الزلط نعاسُه

هذا زمان التخرويض وكل واحد يدبر لراسُه

اللي سبق فاز واربح ودّارت ليه الهمه

واللي تلاً به الوقت هزه مسكين الما

أنا بعد عمري ماقلت في أصحاب الجاه والنعايم

هم أسباب البلا والغم الدايم

(أصوات : **لا ، عمرك أبو عزه .**)

أنا عمري ما عيبت في أصحاب السياسه والتدبير

ولاسميتهم بحال شي بعضين : أصحاب التبذير والمحاين

(أصوات : **لا ، عمرك أبو عزه .**)

كلامي فيهم كله خير

وإذا فلتت مني كلمة أو كلمتين

رجايَ ما يعبروا طرحه ولا يحاسبوا حلايقي بوهالي

شفاعتي عندهم كليمات غنيتها في كل المكاين

شطًحت على واحده ونص ناس بحالكم وحركت اكتاف وبطون

ومن بعد موال ياليل ياعين ماقادر عليه اليوم

ها أنا نبندر ونغني نقول :

ها للا المخنتره مولاة النور الشايع

تبهر العقول والقلوب وما تخلي حد حاير

الشباً والحرمل عليها والخمسه والخموس

ها مولاة الزين المسرار وعمارة الخير والبشاير

هذا البندير غنوا معه اسميتها ولا طولوا البرطيا :

ديمو .. ديمو .. ألقراطيه لقراطيه لقراطيا ...

ديمو .. ديمو .. ألقراطيه لقراطيه لقراطيا ...

(يتهافت بعض الشباب على وسط الحلقة ويشرعون في الرقص على وقع البندير منشدين : **ديمو .. ديمو .. ألقراطيه لقراطيه لقراطيا .**)

قلت ما طَّولوا في البرطيا

ها البوليس مول الكسوه جايينا قاصدين

دوروا الطبسيل وغنوا معيَ بجاه النبي والصالحين :

بيضة بيضة للا ...

(يصحبه بعض المتحلقين :)

باش نبيض لوحي / لوحي عند الطالب / والطالب في الجنه / والجنه محلوله / حلها مولانا / مولانا مولانا / لاتقطع رجانا / بحرمة محمد / محمد وأصحابه / في الجنة يتصابو /أحجاج بيت الله / اللي ريتم رسول الله / طاني طاني والقسطاني / هذا جامع سيدي رمضاني / خليناه يتوضى / حتى يقرا أحزاب الله / والعزيز عند الله / يا سيدي رسول الله ... "

* * *

تشتت جمهور الحلقة بعد أن جمع صاحبها حوائجه واصطنع الهروب ، فتبعه رجلان بإشارة من بومهمة . نظر هذا إلى الساعة في معصمه ، فقدر أن هناك متسعا من الوقت مازال يفصله عن موعد سري حدده له بالهاتف الرجل القوي ، فاقترب من حلقة استدرجه إليها صاحبها بكلام بدا له في غاية الأهمية لأسباب لايعلمها إلا هو ، كلام وعد نفسه أن يبلغ فحواه وبيت قصيده إلى سيده وولي نعمته . ومما جاءه منه بعد أن فرض مكانه بين المتحلقين :

... هذي قريعة الخير خلطت فيها مواد مايحصل عليها غير اللي بحالي هايم جوال

في دم الدنفيل سحقت اللوز الهندي وعظم النمر والنعامه

وغليت هذا الخلّيطى مع الحلبه والشيح وراس الحانوت

وذبانة الخيل

هذا دواي ينفع في النسا والرجال

إلا الهبيله والهبيل

والهجالة والعزبه مضفرة الشيب

اسيادنا من قبل قالوا : اللي بغى العسل

(أصوات : يصبر على عض النحل .)

دوايَ مرّ بحال الحنظل

لكن فعلُه في الصحه يحصل

إذا اتخذ بالإيمان والتماره

بلا طنز لا مزاح وبلا ملاغه

قريعة الخير ما اخترعتها أنا

صاحبها الله يفيدنا بعلمُه هو طبيب الأوليا والفايزين

هو فقيه وعشايبي كبير ومختص في الأنحكة ...

(أصوات : الأنكحة ؟!)

هي عقود الزواج يا فاسدي النية

آش كنت نقول ؟ الله يثبتنا على الشهادة ساعة يحضر عزريل

إيه... قريعة الخير صاحبها هو الفهامه حمو بن قنديل

مؤلف « أدوية الصحة من الفلج إلى الكحة »

والقريعة سال المجرب قبل الطبيب

صلحت لأمراض كثيرة من زمان قديم

قيل ، والله يعلم : السكر وبوصفير والسخانة الثلثيه

وقيل والقول ثابت بالحجة والبرهان :

الغُلظ وقلة الفحولة

(أصوات : قلة الفحولة ؟!)

ما تحكوا على الدبره وقولوا الفحوله أو الهمة والرجوله

(صوت : " **ضوينا اكثر ، راه عقولنا معلكة وثقيلة** " .. يميل الحلايقي على أذن أقرب رجل إليه ، فيهمس فيها كلمات سرعان ما يتناقلها الجمع همسا ، فيصيح بعضهم : " **دابا فهمنا .** ")

قريعاتي بعتها لأهل الذوق الرفيع والديور المضخمه

دوايَ رقّق الغليظ وقوى الرجل على المراه

قال كل من نوى الخير وبرا

أَنْعِمْ بالدوا وأكرم والله يدخل صاحبه الجنه

شكون يشري قريعة الخير

راه المراه تحب من الرجال مول المال ومول الزين

ومول الرجوله لاَحْيا في الدين

وإذا توفر لك الشرط الثالث وحده

فراك دايز مطلوب ما عليك ضيم ولا غبينه

راك جايز يا سيد الرجال يا أبا العزّه يا بوعزه

سوْلوني على شربها كيف يكون

راه في التسوال مطلع النور

اللي يسولني ليه نقول :

انوِ الخير تلقَ الخير وإذا سبقت القسمه تغلبها النيه

نص جغمة في الصباح على الريق

وجغمه مع الغدا وزوج مع العشا بالتوفيق

وشرب الدواء في رمضان : " أوهو " ثم " أوهو "

دِرْ النيه ومع سيدي قدور العلمي وترجَّ وقل :

" يا من بلاني عافيني ياكريم الكُرما

غثنا بفرج يا الشافي بحكمتك حال كل مضرور " ...

شكون اللي يشريها بالثمن المعقول ...

والا حتى واحد ما باغيها

حتى واحد منكم ما هو مريض يا أهل الزلط والعدمه

اعطوني التِّساع وفرقوا المصدع

خلوني نشوف حظي مع زقا أخرى

* * *

تشتت جمهور الحلقة بعد أن جمع صاحبها حوائجه وقصد مكانا آخر ، فتبعه رجل بإشارة من بومهمة . نظر هذا إلى الساعة في معصمه ، فقدر أن الوقت حان للذهاب إلى موعد سري حدده له بالهاتف الرجل القوي .

6 الدخـول إلى المارستان

في يوم كل خميس بعيد العصر ، تعوّد الرجل القوي على استدعاء أعوانه ومستشاريه الذين تطلق على بعضهم تجاوزا صفة وزراء بحقائب معينة أو بدونها ، كما تعوّد على تركهم منتظرين قدومه ساعة أو أكثر ، وذلك بمعية مستشاره بومهمة ، السالف ذكره ، الذي تعود بدوره على تزجية الوقت برمق الحضور بعين فاحصة متطلعة ، والإنصات إلى همساتهم بأذن دقيقة لاقطة . وحين يبدأ في النظر إلى ساعته ويرش خفيةً يديه وعنقه بعطر من قارورة كانت لاتفارق جيبه ، فمعنى ذلك أن وصول سيده وشيك جدّا .

لكن تقديره هذه المرة أيضا لم يصدق ، فطال الانتظار ساعتين وأكثر ، وتهامس المجتمعون بكلام خفي مرموز ، التقط بعضه بومهمة وأتلف البعض . ومما قبض عليه ووعد نفسه بفك شفرته : " ويك تكون العقرب تحككت بالأفعى ونحن هنا في اجتماع الغفلة ! " ؛ " ويك يكون السيل بلغ الزبى والكربلا واقعة ، ونكون هنا جالسين ، قابضين على هب الريح والرملة ! " .

عاود بومهمه المسك بقارورة عطره ، ورش بها خفية يديه وعنقه متوسلا متضرعا إلى الله أن يوقف نزيف هذا الانتظار الطويل الثقيل بقدوم الرجل القوي . ولم تمض على توسلاته وتضرعاته إلا لحيظات حتى ارتج ممر باب القاعة الخلفي بوقع خطوات مدوية حازمة ، أعقبها انفتاح الباب ودخول سبعة رجال مدنيين وعسكريين مسلحين ، فأخرجوا المجتمعين من القاعة والبناية ، ثم وضعوهم في شاحنة مستورة محروسة ، واقتادوهم مكبلي الأيدي

إلى وجهة مجهولة .

* * *

لما أفاق بومهمة من غيبوبة سقط فيها بعد خضوعه أياما للاستنطاق والتعذيب ، وجد نفسه مطاحا به منزوع المهمة في مستودع تشير كل الدلائل والقرائن على أنه مارستان ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر : رجال بوزرات زرقاء وسياط ، يجولون ويصولون في الأمكنة بين جموع من النزلاء ، الذين كانوا يدورون في الساحة فرادى أو زرافات ، ومنهم من ينظمون حركة المرور أو يستعرضون حماقاتهم أو يعرضون ألسنتهم خارج أفواههم ...

واحد من هؤلاء استوقف بروطابوراس ، فخاطبه كما لو كان يعرفه منذ زمن بعيد ، قال : " ما من امرأة مرت تحتي إلا وكُتب لها فَرَجُ الزواج من بعدي . والآن طارت بركتي ومشت .. شف حالتي كيف كانت وكيف صارت ، وشف حالتك أبّا علي : أخوك خراب وأنت خراب ! " أراد المخاطب أن يسأل المتوجع إن كان من قبل من عليّة القوم ، وزيرا مثلا أو ضابطا ساميا ؛ أراد أن يواسيه ويشد أزره بشيء من الكلام الدافئ الرقيق ، لكنه ألفى لسانه أثقل من الرصاص ، فلم يفلح بعد لأي ، والرجل عائد أدراجه ، إلا في إطلاق تصويتات حيوانية ما أقربها إلى النبح المبحوح والمواء المتقطع !

اللقوة !

نعم .. لعلها اللقوة أصابت منزوع المهمة من جراء غيبوبته . وللتأكد أكثر من الأمر أقبل على تمرينات نطقية ، فلم تصل إلى طبلة أذنه سوى تصويتات شبيهة بالتي قدر

عليها منذ حين . اكفهر حاله من جهة لسانه ، لكنه منّى النفس بعودته إليه ، وحمد الله على أنه مازال متمتعا بحواسه الأربع الأخرى ، وحمده أكثر لما لاحظ أنه أخذ يسترجع ذاكرته بالتقسيط وعبر صور وأخبار عرفها خلال شهر اعتقاله .

تذكر مثلا ما راج من روايات عن اختفاء الرجل القوي وموته : فمن قائل إنه تجاوز خطوطا حمراء ، فدبر الرئيس الفهد اغتياله بواسطة حادثة سير ماحقة ؛ ومن قائل إن قنبلة مضادة للأفراد انفجرت فيه وهو يحاول الفرار عبر الحدود الشرقية ؛ ومن قائل إن زوجته للاهنية جرعته السم بأمر من الرئيس وادعت القول بانتحاره ... وهناك روايات أخرى راجت في أرجاء البلاد فعلت فيها المخيلة الشعبية فعلها ، ونقلت بعضها همسا إلى منزوع المهمة أيام اعتقاله زوجتُه القديمة التي لم يجد سواها للوقوف معه في محنته وبلواه .

وتذكر نزيل المارستان أيضا أنه اتهم بقتل زوجته الشقراء خنقا بمخدة ، وأن مستنطقيه انتابهم ضحك صاخب حين حلف لهم بالأيمان المغلظة أنه بريء من التهمة ولا شأن له بمقتل الزوجة إلا من باب الحلم بذلك ، فضرب كبيرهم على الطاولة وصرخ وهو يخنق ضحكه ويمضع العلك : " بين حلمك وفعلتك مسافة لم تع أنك قطعتها ، ولا شهود لك على أنك لم تقطعها " . وتذكر أنه وقّع مكرها على محضر إثبات الجريمة وعلى آخر عن علاقاته بحماد الرواسي المدعو ببروطابوراس .

تذكر ذلك كله وأشياء أخرى قيد تفاصيلها ، فشكر الله

كثيرا على أن حفظ له ذاكرته عربونا على احتمال شفائه من تلوث الوعي وصدمة الأحداث ومن اللقوة .

مر أمامه رجل ، فتعرف على وجهه ، وتذكر متى وأين عرفه حين سمعه يصيح قاصدا وسط الساحة المبرقعة بشمس خريفية :

" عَيَّطْتْ عيطة حْنينه   فَيْقَتْ من كان نايم
ناضوا قلوب المحنَّه   ورقدوا قلوب البْهايم "
قالها سيدنا الشيخ المجذوب
صاحب اللوعة والحكايم
قالها مول الكلام الرياعي
عليه الرحمه والنعايم
تعالوا يا قلوب المحنه تسمعوا حديث الصح
ما فيه غش ولا وش ما فيه شتايم
تعالوا لحلقتي كنتم من الصغار أو الكبار
من أصحاب الكسوه أو أهل العمايم
تعالوا سوا كنتم من ناس الذوق والفطنه
أو من عبيد الغفلة والشكايم
تعالوا نعطي لرْواحنا وقتها
وناديوْ على رجال لقدره والفهايم

حين توقف المنادي في مكانه المختار ، تهافت عليه النزلاء أفواجا كالفراش المفتون ، وتحلقوا عليه متزاحمين . تبديدا لشعوره ببعض الضجر ورغبة منه في وضع حـــاسته السمعية على المحك ، لم يجد منزوع المهمة بدا من الالتحاق بالحلقة ، حيث كان صاحبها يقول :

الله يخفظنا من الأمراض كلها

لكن قالوها أسيادنا : اللي ماخْرج من الدنيا ؟

(أصوات : **ماخْرج من عقايبها .**)

والصحة يا بن آدم هي الساس ، كل شيء هي الصحه

وأنا عليَّ بالبرهان والحجه

اللي صعب عليكم عندي سهَل

والعقبه في وجه الاحباب حدوره

لكن ما يفيض ويفيد اللسان غير بالرش والتدويره

(يدور عارضا طاقيته لجمع قطع نقدية وهمية . يعود إلى وسط الحلقة ، فيبسط على الأرض خارطة جسم الإنسان ، ويأخذ في توشية كلامه بضربات كفية منتظمة .)

شوفوا هذ الخريطه يا أهل العيون البصيره

شوفوا فيها كرش بن آدم كيف تصورت

ومصارنه كيف تلوت وتخبلت

شوفوا الكبده والمراره والطيحان

شوفوا الريَّه على الايمن والريّه على الايسر

وحققوا بعين الخبره والميزان

حققوا في القلب أكثر

(يجذب عجوزا إلى وسط الحلقة .)

شوفوا هذ الشيباني الشارف على الفاس والقياس

شفوه يتنفس والروح طالعه فيه هابطة

ربط ربّه وربّنا قلبه بشعره

وقال له اضرب وكن فضرب القلب وكان

وهكذا الحياة في صدر الإنسان

وهكذا الشيباني يعيش ويحيا

حتى تقطع شعرته ويطيح ويلوى

لكن قبل ما يجي الأجل المحتوم علينا كلنا بالمقابلة والتْهليه

علينا بالحضيان ورد الولهه

شوفوا وتأملوا تدركوا مع الرابحين الحق والعبره

قرقبوا السواريت كلموا العصي

تكونوا طالعين غانمين درجه

قلت الله يحفظ الجميع من الأمراض كلها

لكن قالوها أسيادنا : اللي ماخرج من الدنيا

(أصوات : **ماخرج من عقايبها .**)

وهذا الراس وما أدراك من الراس !

أعظم ما فيه هو المخ يا ناس

هو بيت العقل والعقل هو الساس

اللي بنى عليه ربح وفاز

واللي مشى لِهْ مصيبتُه مصيبه

اسمعوا دقيق كلامي فيه يا أهل الجذبه والحال

يا أهل الفيض والخروج على القياس ...

فجأة صدر عن بوق في بناية تنبيهٌ إلى منع التجمعات ، ثم تبعه تعرض المجتمعين لقذف شديد من خراطيم مائية تصوبها شاحنة مطافئ متحركة . هرب من هرب ، وصمد نفر مرحبين بالماء مغتسلين ، هاتفين : " اروها يا كريم ! " . هتاف لعله يشير إلى أنهم يحسبون الماء المنهمر عليهم مطرا وأنهم ، بالتالي ، الحمقى الحقيقيون . ولم يتفرقوا إلا بعد أن لاحقهم الحراس بالسياط والهراوات .

كان منزوع المهمة في زمرة الهاربين الأولين . اعتصم

بجدار خربٍ وجلس أسفله يتنشف بما تبقى من شمس النهار . قبالته قعد صاحب الحلقة للغرض نفسه ، وصار يحدجه بنظرات تغني عن الكلام ، كأنه فهم أن جليسه أبكم أو معقود اللسان . قال قبل أن ينتصب واقفا ويذهب : " هذا دواء اشربه قبل النوم يعدْ إليك النطق بعون الله ... غدا أو بعد غد يأتيك قريب بقفة طعام .. طلبي ، إذا شفيت ، أن يحمل القريب في القفة بطاقات إلى عنوان أدلك عليه .. اتفقنا ؟ " ململ المسؤول رأسه موافقا ، ثم نهض وقصد زنزانته وهو يردد في داخله : بطاقات ، بطاقات !

حين تمدد على سريره الخشبي تناول قارورة الدواء ، وهو سائل طعمه كالماء ، فشربه بتأن مرددا أدعية الاستشفاء . ما هي إلا لحظات حتى شعر باسترخاء ناعم ونعاس كاسح يهجم عليه ، لا بالصفع والكوابيس ، بل دفءاً وسلاما .

مع انبلاج الصباح أحس بداية بنغل في لسانه كأنه دبيب نمل كثيف متضاغط يروم الخروج والسعي . ولم يخفِّ النغل إلا بعد أن أخذ الشاعر به ينطق بكلمات متقطعة في تحية زائرة خيالية ، قال : صباح .. الخير .. والربح .. يا عتيقة .. يا بنت الأصل .. والمفصل .. يا زينة الشمايل .. يا بنت .. الناس !

مبتهجا مسرورا خرج يبحث عن الحلايقي شافيه . فوجده في المطعم جالسا على كرسي متداعٍ ، يقضم خبزا يابسا ويبلله بجرعات شاي . انحنى عليه وباس رأسه شاكرا له فعله ، وأطنب في الشكر حتى يعبر عن اعترافه

وامتنانه ويزيد كذلك في التأكد من أن لسانه انفكت حقا عقدته واستعاد طلاقته وعافيته : نهض الرجل واقتاد شاكره إلى زاوية في الساحة مستورة ، قال :

- اشكرِ الله وحده .. الدواء كان ماء .. لاشيء غير ماء .

اعترى منزوع المهمة الدهش والذهول ، قال :

- ماء ! الماء والزغاريد ! ماء سيدي ربي ! وكيف شُفيت ؟

- بقدرة القادر ولأنك نويت .. والآن ذكرني باتفاق الأمس .

- بطاقات .. أن أعهد لزوجتي بحمل بطاقاتك إلى من تريد يا بوهلال .

- هو ذاك .. تعرفني وأعرفك ياباّ علي .. فقدتَ المهمة وعليك اليوم بالهمة ... هي بطاقات لشاب كان نزيل هذا المارستان .. عاهدته قبل أن يسلم الروح على توصيلها إلى أصحابه وصاحباته في المدينة . وأنا المقطوع من شجرة لا أحد يزورني هنا . المعول عليك إذن في مساعدتي .. تحمل زائرتك الأمانة إلى المدعوة الحاجة حليمة جلاسة حمام الرحمة ، وكفى .

أخرج الرجل من جيب معطفه الداخلي رُزيمة معقودة ودسها داخل صدريه محاوره ، وقال قبل أن يغيب :

- إذا عزمت يوما على الفكاك من هذا المارستان ، فتوكل على الله وعلي . وإذا لم تنو ، فلا تبحث عني .

عاد حامل الأمانة إلى زنزانته مشتت الذهن ، مفكرا في أسئلة شتى عن ذاك الرجل الغريب المحيّر . جلس على مطرحه واستل من الرزيمة بطاقاتها ، فشرع يقرأها واحدة تلو أخرى ، فاهتم بها أيما اهتمام وسُرَّ ... قرر أخيرا قطعا

لحيرته وشكوكه أن ينو الخير حتى يلقى الخير . أعاد رزيمة البطاقات إلى صدره وتمدد وقتا طويلا ، يغفو قليلا ويفكر كثيرا في نقطتين اثنتين مشعتين : زيارة زوجته المرتقبة وخلاصه المحتمل من المارستان .

* * *

كان النهار قد تعدى وقت العصر بساعة حين نودي بالاسم على علي العوني إلى قاعة الزوار . هنا هتف همسا وهو يرى بأم عينه زوجته القديمة شاخصة أمامه بجلبابها وقُفتها : " صدقت رؤياك يا بوهلال ! " لم يكن المقام يسمح له بضم زائرته إليه وإحاطتها بما تستحقه من آيات الحفاوة والتكريم ، غير أنه جالسها ومال إليها قلبا وقالبا وكأنه على توهم يفعل ذلك كله ... لم يكن الوقت يسمح له بريّ رغبته العارمة العظمى في تفصيل الكلام وضبطه مع امرأته بنت الحلال .

بعد أن تلقى منها تطمينات على حالها وحال البنات ، عبر لها بما قل ودل عن أمنيته الأغلى في أن يعود إلى البيت سالما آمنا . مال على أذنها وبث فيها كلمات حول رزيمة البطاقات ، مؤكدا على أهمية الأمر ودقته ، حتى إذا نهاه حارس فظ عن الهمس سحب إليه ما في القفة من مأكولات ، وتحين غفلة الحراس ، فدس في قاعها الأمانة وغطاها بمناديل .

صاح حارس معلنا انتهاء وقت الزيارة ، فوقفت المرأة على مضض ودعت زوجها المتشبث بكميها إلى الوقوف والترزن ، ثم نهته عن خوفه من أن يُجنَّ أو أن ينكسر عرقوبه ويبيض دمه إذا طالت إقامته في المارستان . قال

وهو يذرف دمعة حرى :

- مطلبي اليوم وحتى الموت ، مطلبي الوحيد أنتِ يا عتيقة والبنات .. أما المهمة ، فقبح الله وجهها وما يجيء منها ... الله يلعنها سلعة !

شملته بنظرة لامعة حنون ، أجابت :

- ولا عليك ! أنا بجنبك ما دامت فيّ قطرة دم .. ما عندي غيرك .. الكلام عن عفو الرئيس كثير .. بعد أسبوع وأنا معك .

غابت صاحبة الكلام الصادق الأصيل ، وظل متلقيه بجوارحه كلها يستحم بضوئه وشذاه ويهوّن به رجوعه المتثاقل إلى فراغ الوقت وبؤس المحل . وحين جلس إلى شجرة الساحة تساءل متعجبا منكودا : عشر سنين في عشرة امرأتي وما انتبهت إلا في هذا المارستان إلى بريق عينيها الذكيتين وبهاء وجهها الأسمر الصامد .

* * *

قضى منزوع المهمة أياما أخرى مكتويا بلظى الكبت والقنوط ، حتى استفحل حاله وتدهور . وذات صباح انتفض وكله عزم على طلب الفكاك . فتش أرجاء المارستان ركنا ركنا وبقعة بقعة ، بحثا عن بوهلال صاحب الوعد والرؤيا . ولما عثر عليه مستظلا بشجرة توت ، صدع في وجهه بصوت مشحون بالوجع والأسى : " نويت ، ياسيدي ، والله نويت ! " ، فأجابه الرجل قبل أن ينهض ويغيب بين جمهور النزلاء المتسكعين : " الآن وقد نويت ، اعتصم بعصا الصبر والصمود حتى يجيء العفو " .

وقضّى متلقي هذا الكلام أياما يغالب عصيان عصا

الصبر والصمود ويبحث ، من دون جدوى ، عن صاحب النصيحة ليسأله سؤالا بات يؤرقه ، وهو : هل العفو من رؤاك الأخرى ، ياسيدي ؟ هل العفو عفو الرئيس أم عفو الله الأكبر ؟ "

* * *

وقتذاك ، كانت البطاقات تتداول نسخها ، سرا ، الأيدي تلو الأيدي ، من دون أن يعرف أحد واضعها ولا مصدرها . ثم إنها صارت في تصاعد وفشو لافت ، مزعج عنيد . ومما عُرف منها خارج دوائر السر أو نُسج على منوالها تناسلا واستلهاما ولم يسقط في آذان الصم :

بطاقة :

في امتحان ترقية البلاد رأينا وشهدنا أنهم يحصدون في الداخل والخارج النقط والأحكام الموجبة للسقوط .

الساقطون الفاشلون العاجزون ، القيّمون على هندسة البؤس والشقاء ، الدافعون بالبلاد والعباد إلى فوهات الهاوية : نقول لهم بلغة حبنا وتعبدنا لبلادنا ، نقول : لا وألف لا .

الحق أننا تعبنا من وجوههم ومن عشرتهم . الحق أننا ننشد المغايرة والتغيير ، ونطلب التنفس خارج تاريخ عاهاتهم ونتاناتهم ... لأننا مادمنا محاصرين بسيوفهم وتجليات جبروتهم وتعلقاتهم الغرائية الجنونية بالمواقع والكراسي ، فإن الانعتاق في ظلهم دونه حقول ملغومة وعقبات ملتوية كأداء وأدغال .

* *

بطاقة أخرى :

انظروا إليهم : هؤلاء الذين يستهلكون ويهلكون كما يتنفسون ، ويستحوذون على خيرات هذه الأرض ، ويجرون محاصيلها في بطونهم وعروقهم ، ويصرفونها قصورا وقناطير من الذهب والفضة ، ويقطفونها متعا متجددة شتى وملذّات .

إنهم يرومون حجب الشمس بالغرابيل والطعن في صفاء المرايا وحجية الوقائع .

لو كانت عدالة الحياة جارية لسعينا إلى مقاضاتهم بتهمة المس بحرمة الإنسان ، وتسفيه القيم وتمريغ المفاهيم في الأوحال .

* *

بطاقة أخرى :

انظروا إلى سماسرة السراب والمفسدين في الأرض كيف يخدعون الناس ، مؤدين أغلظ الأيمان ، آخذين أوثق العهود بـ " الطعام اللي شاركنا " أو " الطعام اللي مشاركين " ، ثم تراهم في محافل التشدق بالكلام واللغو يمارسون في حق مشتقات الاشتراك كلها شتى أنواع القذف والتشهير .

* *

بطاقة أخرى :

تركت صاحبي لاتغنيه الجرادتان !

لأني تركته يسهر الليالي الطوال في مراودة كتابة السيرة الذاتية لشعب لم يعد مستضعفوه يقوون على حمل رؤوسهم .

وألفيت صاحبي الآخر يراكم في النهار القرائن والوقائع الشاهدة على بؤس السياسة في حياة بلاده ... وبالليل - حكى لي - صار ينظم الكلمات تلو الكلمات في مدح الثبوت والثبات .

وفي الفجر ، وقت السحر ، يهب للوقوف موقف السعي مع الرجال والنساء الأشداء على أعداء العدل والنضارة والبهاء ، أعداء الحياة .

* *

بطاقة أخرى :

وأنا أرى بالذهن وأم عيني بني قومي يتقدمون في طُرق التصدع والانكسار ، كيف لي أن أقوى على إطفاء رغبتي في خلاصهم ، وإقامة مناسك " النيرفانا " على الطريقة البوذية ، أن أغطس ملكاتي في سُرّتي وسرتي في ما لا يتأتى ولا يأتي .. !

* *

بطاقة أخرى :

نيابة عنكم يا فقراء الأرض ، وأصالة عن نفسي ، هأنذا أمام شواهد السلب ومشاهده عند أباطرة التزييف وإفساد الضمائر ، هأنذا أفصح عنها بالرقم في حقول إدارتهم وتدبيرهم ، وأقرأها في عجزهم العضال الأكبر : عجزهم عن إسعاد هذي البلاد وحبها .

* *

بطاقة أخرى :

وقفت على صور كثيرة من بلاغة يأس الناس ، فهتفت : أكل هذا الشر صرفوه في شعبي !

أبكل هذه القنابل الفتاكة البعيدة المدى يرمون همومه وجروحه ، قنابل التحقير والاستهتار ؟

ما هذا التكالب على تأجيج شعائر التلاشي ؟

ما هذا الصقيع وهذي البرودة السيّالة ؟

ما هذا التلوث المستبد بالوجوه وهذا الكسوف الممتد على الأجساد كقدر ساحق ؟

أحياة هاته التي نحيا أم كابوس مرعب ؟!

قسما ببسمة الـــوليد ، وبما تبقى من دفء في عيون الأحبة ، لأصمدن معكم كيما تضربنا الحياة بأجنحتها ويصير لدنيانا طعم ومعنى .

مجنون الكلمة

نجيب العوفي

● " بنسالم حِمِّيش " اسم إبداعي مألوف في الأذن ، موشوم في الذاكرة ، معروف لدى القراء الكُثر بحضوره الأدبي الدؤوب والمتجدد ، وبخصوبية هذا الحضور وانفتاحه على آفاق وحقول فكرية وإبداعية متنوعة ويانعة ، تتراوح بين الإبداع الفلسفي والإبداع الشعري والإبداع الروائي ، إضافة إلى مداخلاته ومساجلاته الثقافية المتعدّدة والجريئة التي طالما أثارت جدالاً أو أنارت إشكالاً ، على امتداد العقود الثلاثة الأخيرة ، حتى ليمكن اعتباره في هذا الصدد ، مثقف المهمّات الصعبة ، ومحرِّك السواكن الراكدة ، ومثير الأسئلة الساخنة والمُقلقة . وتلك بحق ، صفات ومناقب أصيلة وجليلة ، نكاد نفتقدها في مثقف اليوم ، المستكين لأوهامه وأحلامه الخاصة، والقانع من الغنيمة بالإياب وحُسن المآب ! ومع أن بنسالم حِمِّيش مُلمّ بأكثر من لغة ولسان ، ويُجيد الكتابة باللغتين : العربية والفرنسية ، فإن مَسكَن وجدانه ومَهوَى قلمه ولسانه ، هي اللغة العربية ، بلا منازع أو مدافع .

يـبدو هـذا جليّاً من خـلال أعمـاله الإبداعية والفكرية المطبوعة ، كما يبدو جلياً من خلال مواقفه وطروحاته المعلنة ، حيث يبدو الكاتب مفتونا ، إن لم أقل " مجنونا " بالكلمة العربية المبدعة ، كهوى نابع من النفس وقناعة راسخة في الرأس ، دون أن يعني هذا بالطبع ، غَضّاً من أقدار اللغات الأخرى أو جوراً على حقوقها .

ومع أن بنسالم حمّيش أيضا ، يشتغل في الحقل الفلسفي ويحاضر فيه جامعياً ، إلاّ أن الإبداع الأدبي هو ضالّته ومُبتغاه ، وهو ملاَذُه ومثواه . والإبداع الأدبي عند حِمِّيش ، ليس محصوراً في جنس أدبي محدّد لايحيد عنه المبدع إلى سواه ، بل هو أفق رحب ومُشْرَع على مختلف أجناس القول ، إذَا كان جناح المبدع قادراً على التحليق واختراق المسافات .

من هنا كتب بنسالم حِمِّيش القصيدة الشعرية الحديثة ، وكان أحد دُعاتها والمراهنين على حداثتها حتى آخر الشوط ، وبلا قيد أو شرط .

كما كتب الرواية الحديثة ، وكان فيها مجلّياً ومتمكّناً . وفي الفترة الأخيرة ، بدأ يكتب القصة القصيرة أيضاً ، كمنزلة وسطى بين الأجناس ، ولعله مواصلٌ فيها تجربته .

وفي جميع هذه المقامات والمحطّات الأدبية ، كانت الكلمة المبدعة ، هي هاجس الكاتب وشغله الشاغل ، أنّى حطّت وارتحلت هذه الكلمة .

وليس بِدْعاً بعد هذا ، أن نصف حمّيشاً بـ " مجنون الكلمة " ، على غرار مجنون حُكمه ، وشتّان بين الجنونين والمجنونين !

والرواية التي بين يدي القارئ الكريم ، في هذه السلسلة

الإبداعية ـ الشراعية ، (بروطا بوراس يا ناس !) ، هي في حدود علمي ، أصغر رواية لبنسالم حمّيش ، ولعلها جزء من رواية أطول نَفَساً ، على عادة حِمِّيش في الكتابة الروائية . والرواية أيضاً ، تُعد الخامسة في المتن الروائي العام للكاتب الذي يتكون من :

- « مجنون الحكم » ، 1990 .
- « محن الفتى زين شامة » ، 1993 .
- « سماسرة السراب » ، 1995 .
- « العلاّمة » ، 1997 .

ولايسمح لي الحيِّز المحدود لهذه التَّقْدمة الوجيزة ، بالإطلال على هذا العمل السردي الجديد ، ووضعه في السياق العام لتجربة حِمِّيش الروائية . وحَسبي هنا الإلماح ، وبالخط العريض ، إلى أن أهم مايميز مسار حِمِّيش الروائي ، هو اقتناصه الذكي والماهر للتيمات والأطروحات الروائية الساخنة والمعيشة التي تنسج خيوط أقدارنا ومصائرنا ، من حيث نعي أو لا نعي . وحُسن توليفه وملاءمته بين البُعدين : التراثي والحداثي ، في الكتابة الروائية . وحرصه دوماً على الصياغة العربية الصافية والراقية التي تبلغ ذِروة تألّقها في روايته الرائعة « العلاَّمة » ، إلى جانب هذه السخرية الانتقادية الماكرة والآسرة التي تعطي لكتابته مذاق البهار الحرِّيف .

فلنختم إذن هذه الملحوظات ، ولنترك القارئ يفضّ ختم الرواية بنفسه .



للمؤلف

بالعربية:

1 ـ الدراسات :

ـ « **في نقد الحاجة إلى ماركس** » ، دار التنوير ـ المركز الثقافي العربي ، بيروت 1983 .

ـ « **معهم حيث هم** » (حوارات فكرية) ، دار الفارابي ، بيروت 1987 (ط . 2) .

ـ « **التشكلات الإيديولوجية في الإسلام** » ، دار المنتخب العربي ، بيروت 1990 (ط . 2) .

ـ « **الاستشراق في أفق انسداده** » ، المجلس القومي للثقافة، الرباط 1992 .

ـ « **في الغمة المغربية** » ، سلسلة شراع ، طنجة 1997 .

ـ « **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ** » ، دار الطليعة ، بيروت 1998 .

ـ « **عن قراء ابن خلدون** » . (قيد الطبع) .

2 ـ الإبداعات :

ـ « **كناش إيش تقول** » (شعر) ، دار النشر المغربية ، الدارالبيضاء 1977 .

ـ « **ثورة الشتاء والصيف** » (شعر) ، منشورات البديل ، الرباط 1982 .

ـ « **كتاب الجرح والحكمة** » ، دار الطليعة ، بيروت 1988 (ط . 2) .

ـ « **مجنون الحكم** » ، (جائزة الناقد للرواية) ، دار رياض الريس ، لندن 1990 .

ـ « **محن الفتى زين شامة**» ، دار الآداب ، بيروت 1993 .

- « **ديوان الانتفاض** » (شعر) ، الرباط 1995 .

- « **سماسرة السراب** » ، المركز الثقافي العربي ، الدارالبيضاء - بيروت 1995 .

- « **العلامة** » ، دار الآداب ، بيروت 1997 .

- « **أبيات سكنتها .. وأخرى** » (شعر) ، دار الطليعة ، بيروت 1997 .

بالفرنسية:

- "**Partant d'Ibn Khaldûn , penser la dépression** " , Anthropos - Edino , Paris - Rabat , 1987

- " **De la formation idéologique en Islam**" , Anthropos - Guessous , Paris - Rabat , 1990 (2ème éd)

- "**Le livre des fièvres et de sagesses**" , Okad , Rabat 1992

- "**Au pays de nos crises : Essai sur le mal marocain** " ; Afrique - Orient , Casablanca , 1997

إصدارات «سلسلة إبداعات شراع» : 10 دراهم

- **العدد 1 : يناير ـ فبراير 1998 :**
  - **« جحا وشجرة التفاح » :** أحمد الطيب العلج (مسرح)
- **العدد 2 : مارس ـ أبريل :**
  - **« بعد الجلبة » :** عبد الكريم الطبال (شعر)
- **العدد 3 : ماي ـ يونيو :**
  - **« يتعرى القلب » :** محمد عز الدين التازي (قصة)
- **العدد 4 : يوليوز ـ غشت :**
  - **« بروطا بوراس يا ناس ! » :** بنسالم حميش (رواية)







● الكتاب القادم

« **سلسلة إبداعات شراع** » لشهري

سبتمبر ـ أكتوبر 1998 خاص بالمسرح :

« الشَّرِكة »

تأليف : محمد الدحروش

الطبع : دار النشر المغربية
الديما edima

التوزيع : الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة
سبريس sApress

مختبر فرز الألوان
4, Rue Al Jabha Al Wataniya
Tél. : (09) 37 22 50 / 60
Fax : (09) 37 22 60
SCANEWS
Tanger

الايداع القانوني رقم
1997/1676

INNOVATIONS SERIE " CHIRAA "

CONSACRES AU THEATRE , LA POESIE , LA NOUVELLE , ET LE ROMAN

LIVRE BIMESTRIEL PUBLIE PAR L'AGENCE CHIRAA - SERVICES D'INFORMATION ET DE COMMUNICATION

DIRECTEUR RESPONSABLE : KHALID MECHBAL
CONSEILLER ARTISTIQUE : AHMED BEN YESSEF
SECRETAIRE DU CONSEIL ADMINISTRATIF : AIMAN MECHBAL
RESPONSABLE DES RELATIONS GENERALES : NOUR EDDINE AKCHANI

CENTRE DE DIRECTION
137. PRINCE HÉRITIER - TANGER
TEL : 94.42.12
37.39.27
FAX : 94.42.16

QUATRIEME NUMERO - ROMAN

JUILLET - AOUT 1998

● مؤلف رواية : « بروطا بوراس ياناس ! »

